النّموذجيّة بين كلّ الجماعات العربيّة خلال كلّ العصور فى الأخذ بناصية اللّغة العربيّة بسبب ما تحقّق لهم وَحْدَهم من أسبابٍ مختلفة منها الأسباب النّفسيّة ، إذا كان كفّار مكّة لا يؤمنون بهذا الكتاب العزيز المعجز بمعناه ومبناه فبأيّ حديثٍ بعد القرآن الكريم يؤمنون ووراء الذّكر الحكيم يصدّقون !

إنّ لسان حال الآية الكريمة يقول : إنّكم يا كفّار مكّة حينما تصرّون على الكفر بالقرآن الكريم وتكذيب خير الأنام محمّد بن عبد الله ﷺ فذلك معناه أنّكم معاندون مصرّون على الضّلال لأنّ الحجّة لا تنقصكم . وإنّ لسان الحال هنا نطق به لسان .

الآيــة رقــم (١٨٦)

قال تعالى : ﴿ من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم فى طغيانهم يعمهون ﴾ .

إنّ الّذين يستحبّون العمى ، ويؤثرون الضّلالة على الهدى ، يزيدهم الله تعالى عمى بصيرةٍ إلى عماهم . وضلالةً إلى ضلالتهم . وهؤلاء الّذين يضلّهم الله تعالى لا هادي لهم ويذرهم جلّ وعلا فى طغيانهم يعمهون ، وفى بغيهم وغيّهم وجبروتهم يتردّدون متحيّرين[1] .

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « عمه » ٣٤٨ وتفسير الطّبريّ ٩٣/٩ والجلالين .

[٢٤]

« علم السّاعة عند الله تعالى وحده وما محمّدٌ إلاّ نذيرٌ وبشير »

الآيتـــان (١٨٧ و١٨٨)

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ
أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ
عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾
قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ
أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ
أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

تقرّر الآية الكريمة الأولى أنّ كفّار قريشٍ فى المقام الأوّل يسألون المصطفى ﷺ عن السّاعة أيان مرساها وعن نهاية مدّة الدّنيا الّتى هي أوّل وقت السّاعة متى قيامها. ولمّا كان ربّ العزّة قد استأثر جلّ وعلا وحده لا شريك له بذلك العلم فإنّ الآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ أن يقول للسّائلين عن السّاعة بأنّ علم السّاعة عند ربّى جلّ وعلا ، لا يظهرها على جليّتها لوقتها ، الّذى لا يعلمه ملكٌ مقرّبٌ ولا نبيٌّ مرسل ، إلاّ هو جلّ وعلا وحده لا شريك له . ولمّا كان لفظ الرّبّ إنّما يستعمل فى القرآن الكريم فى مواقف الخصوص وفى التّنبيه إلى تربية الله تعالى عباده بالنّعم العظيمة والآلاء الجسيمة ، ولمّا كان فضل الله تعالى عظيمًا على المصطفى ﷺ فإنّ مجيء لفظ الرّبّ فى القول : ﴿ قل إنّما علمها عند ربّى ﴾ مقرّرٌ لنعم الله تعالى العظيمة على المصطفى ﷺ من ناحية ، ومن ناحيةٍ أخرى مقرّرٌ عبوديّة المصطفى ﷺ لبارئه جلّ وعلا الّذى أسبغ عليه نعمه عزّ وجلّ الظّاهرة والباطنة . وهكذا يبدو الدّور العظيم للقول : ﴿ ربّى ﴾ فى التّنبيه إلى أنّ استئثار الذّات العليّة بالعلم بوقت السّاعة وعدم إعلام الله تعالى ذلك الوقت أحدًا من الخلق وفيهم الحبيب المصطفى ﷺ من قبيل التّأكيد للفصل بين مقام الألوهيّة والرّبوبيّة ومكان العبوديّة . إنّ السّاعة حينما تقوم يثقل قيامها على أهل السّماوات والأرض بسبب الضّرر الّذى يصيب الجميع بإذن الله تعالى من قيامها . وهي لا تأتي إلاّ فجأة . إنّ كفّار قريشٍ يسألون المصطفى ﷺ ويلحفون فى السّؤال عن السّاعة كأنّه عليه الصّلاة والسّلام

حفيٌّ بها كثيرٌ الاهتمام بها والسّؤال عنها . إنّ القول : ﴿ يسـألونك كـأنّك حفـيٌّ عنها ﴾ مظهرٌ من مظاهر بلاغة القرآن الكريم بـالحذف بسبب التّقديـم والتّأخـير . لقد قام الجارّ والمجرور : ﴿ عنها ﴾ بسبب التّأخير بـدور جـارّين ومجروريـن بـاقتدار وهما : « عنها » و« بها » وتكرّر الآية الكريمة فى جزئيّتها الأخيرة وتؤكّد أنّ علم السّاعة عند الله تعالى وحده لا شريك لـه ولكـنّ أكـثر النّـاس لا يعلمـون فيسـألون عنها .

وتؤكّد الآية الكريمة الأخرى مقـام العبوديّـة فـى حقّـه ﷺ فتـأمره عليـه الصّـلاة والسّلام أن يقول لأولئك السّائلين عن السّاعة : إنّى لا أملـك لنفسـى ، فضـلاً عـن سواي ، نفعًا أطلبه ولا ضرًّا أطرده ، إلاّ ما شـاء الله تعـالى أن يصيبنـى مـن نفـعٍ أو ضرّ . إنّى لا أعلم مـا دون السّـاعة فكيـف بالسّـاعة . إنّـى لـو كنـت أعلـم الغيـب لاستكثرت من الخير أن يصيبنى وابتعدت عن الضّرّ أن ينالنى ، والسّوء أن يمسّـنى . أنا لست إلاّ واحدًا من البشر ولكنّ الله تعالى اصطفاني بالرّسالة فأنا بأمر الله تعـالى النّذير للكافرين بالنّار ، والبشير للمؤمنين بالجنّة .

الآيـــة رقـــم (١٨٧)

قال تعالى : ﴿ يسألونك عن السّاعة أيّان مُرْساها قـل إنّمـا علمهـا عنـد ربّـى لا يجلّيها لوقتها إلاّ هو . ثَقُلَتْ فى السّماوات والأرض . لا تأتيكم إلاّ بغتة . يسألونك كأنّك حفيٌّ عنها . قُلْ إنّما علمها عند الله ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون ﴾ .

يسألك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم كفّارُ قريش(١) وأهلُ مكّة ، على سبيل الإنكار والاستبعاد ، عن السّاعة أيّان مُرْساها ، ومتـى قيامهـا(٢) وآخـر مـدّة الدّنيـا الّذى هو أوّل وقت السّاعة(٣) ويؤمر عليه الصّلاة والسّلام أن يقول للسّائلين : إنّمـا

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩/٩٣ و٩٤ وأسباب النّزول ٢٦٢ وتفسير ابن كثير ٢/٢٧١ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٩/٩٤ . (٣) تفسير ابن كثير ٢/٢٧١ .

علم السّاعة ووقت قيامها عند ربّى جلّ وعلا : ﴿ لا يجلّيها لوقتها إلاّ هو ﴾ جلّ وعلا ، ولا يظهرها على جليّتها وحقيقة أمرها إلاّ الله تعالى وحده لا شريك له .

وانظر إلى لفظ الرّبّ المتّصل به ضمير المتكلّم العائد إلى المصطفى ﷺ فى القول: ﴿ إنّما علمها عند ربّى ﴾ والمعروف أنّ لفظ الرّبّ يُستَعْمَل فى القرآن الكريم فى مواطن الخصوص ، وحينما يكون الجوّ عابقًا بشذا الرّضا والامتنان ، وحينما يراد التّنبيه إلى تربية الله عباده بنعمه العظيمة ، ووجوب قيام العبد فى المقابل بالشّكر لله تعالى على تلك النّعم والآلاء ، بفعل الأوامر واجتناب النّواهى . وليس بخافٍ دور لفظ الرّبّ البليغ فى القول : ﴿ قل إنّما علمها عند ربّى ﴾ لأنّ فى مجيء لفظ الرّبّ هنا ، وبخاصّةٍ حينما يجيء على لسان ﷺ ، تنبيهًا إلى أنّ وقت قيام السّاعة ، الّذى لا يعلمه إلاّ ربّى جلّ وعلا لحكمةٍ بالغةٍ اقتضتها مشيئته جلّ وعلا ، أمرٌ قائمٌ بذاته ومستقلٌّ عن نعم الله تعالى الّتى لا تُحْصَى عليّ وآلائه الّتى لا تُعَدّ فى حقّى . إنّ نعم ربّى جلّ وعلا عليّ كاملةٌ غير منقوصة وبالتّالى لا يرتبط بهذه النّعم الكاملة عليّ اقتصارُ العلم بوقت قيام السّاعة على الذّات العليّة الّتى شاءت لحكمةٍ بالغة ألاّ يعلم مخلوقٌ بوقت قيام السّاعة.ومن البيّن قوّة الفصل بين مقام الرّبوبيّة ومقام العبوديّة فى أعلى صور الإنعام عليها فى شخصه عليه الصّلاة والسّلام .

ولماذا يسأل كفّار قريش عن وقت قيام السّاعة وهم المكذّبون للرّسول ﷺ ، الكافرون بالقرآن الكريم ، المنكرون للبعث ؟ إنّهم لا يسألون بقصد العلم فالاستعداد لذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود ، ولكن بقصد الإنكار والتّسلية والاستهزاء . ولمّا كان قيام السّاعة جدًّا وليس بالهزل فإنّ الآية الكريمة تقرّر ثقل قيام السّاعة على أهل السّماوات والأرض . عن ابن عبّاس قال : ليس شيءٌ من الخلق إلاّ يصيبه من ضرر يوم القيامة[1] ومن مؤكّدات ثقل قيام السّاعة أنّها لا تأتى إلاّ بغتة ، ولا تقوم إلاّ فجأة : ﴿ لا تأتيكم إلاّ بغتة ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٧١ وانظر تفسير الطّبرىّ ٩/٩٤ و٩٥ .

ويلاحظ مجيء جملة : ﴿ تأتيكم ﴾ هنا . والمعروف أنّ جملة ﴿ أتى ﴾ إنّما تستعمل فى القرآن الكريم دليلاً على البعد الزّمانيّ أو المكانيّ أو النّفسيّ . وإنّ جملة ﴿ تأتيكم ﴾ فى حقّ المكذّبين تدلّ على البعد الزّمانيّ من ناحية ، وعلى البعد النّفسيّ أو المعنويّ فى حقّ المكذّبين الّذين يستبعدون قيام السّاعة بل ينكرونه من ناحيةٍ أخرى . وإنّ جملة : ﴿ تأتيكم ﴾ فى حقّ المؤمنين تدلّ على البعد الزّمانيّ لأنّ السّاعة تقوم بإذن الله تعالى فى المستقبل الّذى لا يعلمه إلاّ الله تعالى . فلا يعلم قيامها حين تقوم ملكٌ مقرّب ولا نبيٌّ مرسل[1] روي البخاريّ عن أبى هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال : لا تقوم السّاعة حتّى تطلع الشّمس من مغربها فإذا طلعت ورآها النّاس آمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرًا ، ولتقومنّ السّاعة وقد نشر الرّجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومنّ السّاعة وقد انصرف الرّجل بلبن لَقحته[2] فلا يطعمه، ولتقومنّ السّاعة وهو يليط[3] حوضه فلا يسقى فيه ، ولتقومنّ السّاعة والرّجل قد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها[4] وروى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال : تقوم السّاعة والرّجل يحلب لَقحته فما يصل الإناء إلى فيه حتّى تقوم السّاعة والرّجلان يتبايعان الثّوب فما يتبايعانه حتّى تقوم السّاعة ، والرّجل يلوط حوضه فما يصدر حتّى تقوم[5] .

ويتكرّر السّؤال من أولئك المكذّبين عن السّاعة ويتكرّر الجواب ذاته فعلى النّاس الاستعداد لقيام السّاعة وليس السّؤال عنها . قال تعالى : ﴿ يسألونك كأنّك حفيّ عنها . قل إنّما علمها عند الله ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون ﴾ .

ولمّا كان الحفيّ بالشّىء هو الكثير الاهتمام به والسّؤال عنه . ففى حديث أنس

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٧١ . (٢) اللّقحة بفتح اللاّم : النّاقة الحلوب الغزيرة اللّبن .
(٣) لاط الحوض يلوطه لوطًا مدّره وطانه بالمَدَر وهو الطّين لئلاّ ينشف الماء .
(٤) تفسير ابن كثير ٢/٢٧١ . (٥) تفسير ابن كثير ٢/٢٧١ .

أنّهم سألوا النّبيّ ﷺ حتّى أحفوه أي استقصَوْا فى السّؤال[١] فكأنّ فى مجيء القول خطابًا له ﷺ : ﴿ كأنّك حفيّ ﴾ إشارةً إلى كثرة سؤال القوم عن قيام السّاعة والإحفاء فى السّؤال والإلحاف فيه . الأزهريّ الإحفاء فى المسألة مثل الإلحاف سواءً وهو الإلحاح[٢] .

وانسجامًا مع كثرة أسئلة النّاس عن السّاعة يجيء فى الرّدّ على القوم هذه المرّة لفظ الجلالة : ﴿ الله ﴾ الّذى يدلّ فى القرآن على العموم ويستعمل فى تلك المواقف وذلك فى القول : ﴿ قل إنّما علمها عند الله ﴾ كما يجيء ذكر النّاس بصريح اللّفظ وذلك فى القول : ﴿ ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون ﴾ .

وبشأن القول خطابًا للمصطفى ﷺ : ﴿ يسألونك كأنّك حفيٌّ عنها ﴾ قال الفرّاء : فيه تقديمٌ وتأخير ، معناه يسألونك عنها كأنّك حفيٌّ بها[٣] ويصحّ القول : إنّ فى الجزئيّة الكريمة بلاغةً بالحذف بحيث إنّ جارًا ومجرورًا واحدًا قام باقتدار بدور جارّين ومجرورين اثنين بسبب بلاغة القول وإعجاز النّظم . وتفسير ذلك أنّ السّؤال يوصل بعن[٤] والدّليل على هذا موجودٌ فى الآية الكريمة ذاتها : ﴿ يسألونك عن السّاعة أيّان مرساها ﴾ وأنّ الحفاوة أو الاحتفاء يوصل بالباء . والدّليل على هذا موجودٌ فى قول الحقّ جلّ وعلا على لسان إبراهيم عليه السّلام فى سورة مريم[٥] : ﴿ قال سلامٌ عليك سأستغفر لك ربّى إنّه كان بى حفيًا ﴾ قال اللّيث : الحفيّ هو اللّطيف بك يَبَرُّك ويُلْطِفك ويحتفى بك[٦] يقال : حَفِي بالرّجل حَفاوة وحِفاوةً وحِفايةً وتحفّى به واحتفى : بالغ فى إكرامه[٧] وبذلك يكون معنى القول : ﴿ يسألونك كأنّك حفيّ عنها ﴾ يسألونك عنها أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم كأنّك حفيٌّ بها ملحفٌ فى السّؤال عنها .

---

(١) لسان العرب : « حفا » .
(٢) لسان العرب : « حفا » .
(٣) لسان العرب : « حفا » وانظر معاني القرآن للفرّاء ٣٩٩/١ .
(٤) انظر تفسير الطّبريّ ٩٦/٩ .
(٥) الآية ٤٧ .
(٦) لسان العرب : « حفا » .
(٧) لسان العرب : « حفا » .

ومن البيّن أنّ قيام الجارّ والمجرور الواحد : ﴿ عنها ﴾ بسبب تأخيره عن القول : ﴿ كأنّك حفيّ ﴾ بدور الجارّين والمجرورين معًا ﴿ عنها ﴾ و﴿ بها ﴾ من مظاهر بلاغة القرآن الكريم بالحذف ، وقد مكّن الحذف من ناحية ، والتّقديم والتّأخير من ناحيةٍ أخرى ، للفظة حفيّ أن ينسحب معناها على سؤال القوم عن السّاعة وبذلك فهمنا أنّ القوم محتفون بالسّاعة ملحفون فى السّؤال عنها ومكثرون .

وإنّ الأسئلة الكثيرة من النّاس عن السّاعة ووقت قيامها تناغم معها مجىء لفظ الجلالة : ﴿ الله ﴾ وذلك فى القول : ﴿ قل إنّما علمها عند الله ﴾ ويبدو المعنى جليًّا حينما نقارن بين القول السّابق المتعلّق بالمصطفى ﷺ وحده : ﴿ قل إنّما علمها عند ربّى ﴾ وبين هذا القول اللّاحق المتعلّق بالنّاس الّذين ألحفوا فى الأسئلة عن السّاعة : ﴿ قل إنّما علمها عند الله ﴾ .

ومن البيّن أنّ الأسئلة عن وقت قيام السّاعة لا قيمة لها ولا فائدة منها ما لم يكن ثمّة إيمانٌ بها وعملٌ من أجلها . وفى هذه الحال يغنى العمل من أجلها عن السّؤال عنها.

وإنّ الأسئلة الكثيرة من النّاس عن السّاعة ووقت قيامها تناغم معها أيضًا مجىء لفظ النّاس بصريح اللّفظ فى نهاية الآية الكريمة: ﴿ ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون ﴾.

إنّ لسان حال الآية الكريمة يقول : إنّ المهمّ هو الإيمان بقيام السّاعة ، والاستعداد لها ، وعمل الصّالحات ابتغاء مرضاة الله تعالى . أمّا السّؤال دون إيمانٍ ولا عمل فلا قيمة له . ثمّ إنّ الاستعداد لذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود بعمل الصّالحات الّتى يريد الإنسان بها وجه ربّه الأعلى يغنى عن السّؤال عن وقت قيام السّاعة ، وربّما لا يكون ثمّة وقتٌ لطرح مثل هذا السّؤال .

وإليك ما ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى فى تفسيره عن الأعرابيّ الّذى سأل المصطفى ﷺ عن السّاعة . يقول[1] : « ولمّا سأله ذلك الأعرابيّ وناداه بصوتٍ

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٧٢ .

جَهْوريّ[1] فقال : يا محمّد . قال له رسول الله ﷺ : هاؤم ، على نحوٍ من صوته . قال : يا محمّد متى السّاعة ؟ فقال له رسول الله ﷺ : ويحك إنّ السّاعة آتيةٌ فما أعددت لها ؟ قال : ما أعددت لها كبير صلاةٍ ولا صيامٍ ولكنّى أحبّ الله ورسوله . فقال له رسول الله ﷺ : المرء مع من أحبّ . فما فرح المسلمون بشيءٍ فرحهم بهذا الحديث . وهذا له طرقٌ متعدّدةٌ فى الصّحيحين وغيرهما عن جماعةٍ من الصّحابة عن رسول الله ﷺ أنّه قال : المرء مع من أحبّ . وهي متواترةٌ عند كثيرٍ من الحفّاظ المتقنين . ففيه أنّه عليه السّلام كان إذا سئل عن هذا الّذى لا يحتاجون إلى علمه أرشدهم إلى ما هو الأهمّ فى حقّهم ، وهو الاستعداد لوقوع ذلك والتّهيّؤ له قبل نزوله وإن لم يعرفوا تعيين وقته » .

والآية الكريمة التّالية تؤكّد حدود العبوديّة فى حقّ المصطفى ﷺ فإلى .

الآيــة رقــم (١٨٨)

قال تعالى : ﴿ قل لا أملك لنفسى نَفْعًا ولا ضَرًّا إلاّ ما شاء الله . ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسّني السّوء . إن أنا إلاّ نذيرٌ وبشيرٌ لقومٍ يؤمنون ﴾ .

تستمرّ الآية الكريمة فى إرشاد المصطفى ﷺ إلى الجواب الّذى يردّ به على أولئك الّذين يسألونه عليه الصّلاة والسّلام عن قيام السّاعة وتبدأ بجملة : ﴿ قل ﴾ الّتى جاءت مرّتين اثنتين فى الآية الكريمة السّابقة . إنّ على المصطفى ﷺ أن يستمرّ فى جوابه قائلاً للسّائلين : إنّى أنا العبد الفقير إلى الله تعالى والّذى لا حولّ لي ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم ، لا أملك لنفسى ، فضلاً عن غيرى ، نفعًا أجلبه وأقرّبه من صحّةٍ ومالٍ وسعادةٍ وجاهٍ وما إلى ذلك ولا ضرًّا أدفعه وأبعده من مرضٍ وفقر

---

(١) جَهْوَرِيّ : مرتفع عال .

وشقاءٍ وخمول ذكر وما إلى ذلك . إنّى لا أملك شيئًا من ذلك إلاّ شيئًا ملّكني الله تعالى إيّاه وشاء جلّ وعلا أن يجعله نصيبي من الخير أو كفلي من الشّرّ .

وإنّى لا أعلم فى مجال الغيب ما هو أقلّ شأنًا من السّاعة وأهون خطرًا . إنّى لا أعلم شيئًا من الغيب قد كتبه الله تعالى من خيرٍ لي أو شرٍّ عليّ وإلاّ كنت قد استكثرت من الخير وأخذت باسبابه ، وتحاشيت الشّرّ فما مسّنى أدنى سوء . إنّي لست سوى واحدٍ من عباد الله تعالى يجوز عليه كلّ ما قدر الله تعالى عليه من خيرٍ أو شرّ إلاّ أنّ ربّى جلّ وعلا قد عصمنى من النّاس . وإنّى لست إلاّ رسول ربّ العالمين ، نذيرًا للمكذّبين بين يدي عذاب النّار الشّديد ، وبشيرًا للمؤمنين بين يدي النّعيم المقيم فى جنّاتٍ وعيون . إنّ الّذى يجهل كلّ غيبٍ يخصّه ، إلاّ ما علّمه الله تعالى إيّاه ، أنّى له العلم بوقت قيام السّاعة الّذى استأثر الله تعالى به وحده لا شريك له ، والّذى لم يبيّنه الله تعالى لملكٍ مقرّبٍ ولا نبيٍّ مرسل !

[٢٥]

« الله تعالى هو الخالق القادر على كلّ شيء ، والآلهة الأخرى مخلوقةٌ عاجزةٌ مقهورة »

الآيـــات (١٨٩ ـ ١٩٨)

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم
مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا
تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا
ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾
فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى
ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ
﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾
وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ
أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن
كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ
يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ
يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾
إِنَّ وَلِىِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾
وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ
أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ
وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

يقرّر السّياق أنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذى خلقنا من نفسٍ واحدةٍ هي نفس أبينا آدم عليه السّلام ، وجعل من هذه النّفس زوجها ، وهي أمّنا حوّاء عليها السّلام ليسكن إليها آدم عليها السّلام ويجد عندها الطّمأنينة والمتعة . فلمّا تغشّى آدم عليه السّلام حوّاء عليها السّلام وستر جسدها بجسده وجامعها حملت حملاً خفيفًا أوّل الأمر فمرّت به ، وذهبت به وجاءت ، وقامت به وقعدت . فلمّا أثقلت حوّاء عليها السّلام واكتمل نموّ الجنين فى أحشائها وحان أوان وضعها دعوا الله تعالى ربّهما جلّ وعلا قائلين : لئن آتيتنا فضلاً منك ونعمةً يا ربّنا ولدًا صالحًا ، كامل الخَلْق والخُلُق ، لنكوننّ من الشّاكرين لك نعمك العظيمة وآلاءك الجسيمة . ويتحوّل السّياق إلى جنس الزّوجين غير المسلمين لله ربّ العالمين فيقرّر أنّ ربّ العزّة حينما آتى الوالدين غير المسلمين ولدًا صالحًا كامل الخَلْق صفحةً بيضاءَ نقيّةً جعلا لله تعالى شركاء فيما آتاهما كأن سمّيا الولد عبد العزّى وعبد اللاّت وعبد مناة بدلاً من عبد العزيز وعبد الله وعبد المنّان وعبد الرّحمن وما إلى ذلك من أسماءٍ حسنة فتعالى الله عزّ وجلّ عمّا يشركون وتنزّه عمّا يصفون . وينكر السّياق على المشركين أن يشركوا مع الله تعالى فى العبادة ما لا يخلق شيئًا كالذّبابة والبعوضة وهم أنفسهم قد خلقهم الله تعالى خالق كلّ شيء ، وما لا يستطيعون لعابديهم نصراً ، بل لا يستطيعون نصر أنفسهم . وأنتم أيّها المسلمون المهتدون إن تدعوا تلك الآلهة الزّائفة إلى الهدى لا يتّبعوكم لأنّها أصنام سواءٌ عليكم أدعوتموهم إلى الهدى وناديتموهم أم صمّتم وأهملتموهم . أمّا الّذين تدعونهم من دون الله تعالى من العقلاء غير الرّاضين عن عبادتكم لهم والرّاضين فإنّهم عبادٌ لله تعالى أمثالكم : ﴿ لا يخلقون شيئًا وهم يُخْلَقون ولا يملكون لأنفسهم ضَرًّا ولا نفعًا ولا يملكون موتًا ولا حياةً ولا

نشورا﴾[1] والدّليل على أنّ أولئك المعبودين لا يفوتون العابدين بشيءٍ أنّ العابدين لو دعوا المعبودين ما استجابوا لهم فتأكّد كذب القول إنّ أولئك المخلوقين أهلٌ لأن يُشْرَكوا مع الله تعالى فى العباده . وبشأن المعبودين من غير العقلاء يسأل السّياق فى إنكار : ألتلك الأصنام أرجلٌ يمشون بها فى قضاء حوائج النّاس ؟ ألهم أيدٍ يبطشون بها أو يعملون ؟ ألهم أعينٌ يبصرون بها الطّريق المستقيم كي يدلّوا العابدين عليه ؟ ألهم آذانٌ يسمعون بها صوت الحقّ سماع قبول فيدعون الآخرين إليه ؟ الجواب على كلّ هذه الأسئلة بالنّفي فتأكّد أنّها آلهةٌ مزعومةٌ عاجزةٌ مقهورة لذا فإنّه عليه الصّلاة والسّلام يؤمر بأن يقول للمشركين : ادعوا شركاءكم الّذين أشركتموهم مع الله تعالى فى العبادة كي يكيدوا لي كلّ الكيد ويتربّصوا بي الدّوائر دون إنظارٍ أو إمهال . إنّ لسان الحال يقول إنّها آلهةٌ مزعومةٌ عاجزة . وإنّ لسان المقال يقرّر أنّ وليّ المصطفى ﷺ وناصره هو الله تعالى الّذى نزّل الكتاب العزيز والّذى يتولّى الصّالحين ويرعى مصالحهم . وفى المقابل لا يستطيع الّذين تدعون من دون الله تعالى نصركم ولا نصر أنفسهم . بل إنّك لو دعوتهم إلى الهدى فإنّهم لن يسمعوا لأنّهم ليس لهم الآذان الّتى يسمعون بها ، وأنت ترى تلك الأصنام تنظر إليك وكأنّها تراك وتُبْصِرك ، والحقيقة أنّها لا تراك ولا تبصرك لأنّها ليس لديها القوّة المبصرة ، بل إنّها ليس لديها القوّة النّاظرة الّتى قد ترى وقد لا ترى . إنّها لا تملك القوّة النّاظرة أصلاً فكيف تكون عندها القوّة المبصرة الّتى ترى بها الأشياء .

الآيــة رقــم (١٨٩)

قال تعالى : ﴿ هو الّذى خلقكم من نفسٍ واحدةٍ وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلمّا تغشّاها حَمَلَتْ حَمْلاً خفيفًا فمرّت به . فلمّا اثقلت دعوا الله ربّهما لئن آتيتنا صالحًا لنكوننّ من الشّاكرين ﴾ .

---

(١) سورة الفرقان ٣ .

تقرّر الآية الكريمة أنّ ربّ العزّة هو الّذى خلقنا نحن البشر من نفسٍ واحدة . ويعنى بالنّفس الواحدة أبانا آدم عليه السّلام[١] وجعل جلّ وعلا وخلق من هذه النّفس الواحدة زوجها . ويعنى بالزّوج أمّنا حوّاء عليها السّلام[٢] الّتى جعلها الله تعالى من ضِلَعٍ من أضلاعه[٣] عن عبد الله بن العبّاس وغيره : مِنْ ضِلَعٍ من أضلاعه من شقّه الأيسر[٤] .

ووجه الشّبه كبيرٌ بين الآية الكريمة هنا وبين أولى آيات سورة النّساء . قال تعالى: ﴿ يا أيّها النّاس اتّقوا ربّكم الّذى خلقكم من نفسٍ واحدةٍ وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيرًا ونساءً . واتّقوا الله الّذى تساءلون به والأرحام . إنّ الله كان عليكم رقيبًا ﴾ ومن البيّن أنّ آية سورة النّساء يجىء فيها القول : ﴿ وخلق منها زوجها ﴾ وكأنّ النّظرة إلى حوّاء عليها السّلام راعت عمليّة الخلق والإيجاد على غير مثالٍ سابق ، وأنّ آية سورة الأعراف يجىء فيها القول : ﴿ وجعل منها زوجها ﴾ وكأنّ النّظرة إلى حوّاء عليها السّلام راعت عمليّة التّصيير لها والتّحويل لها من آدم عليه السّلام إنسانًا آخر سويًّا بإذن الله تعالى . إنّ عمليّة التّصيير والجعل كانت من نصيب أمّنا حوّاء عليها السّلام . بعد أن كانت عمليّة الخلق والإيجاد من العدم من نصيب أبينا آدم عليه السّلام .

والزّوج يقال لكلٍّ من القرينين من الذّكر والأنثى فى الحيوانات المتزاوجة[٥] فالزّوج فى القول من سورة النّساء : ﴿ وخلق منها زوجها ﴾ ومن سورة الأعراف: ﴿ وجعل منها زوجها ﴾ معناه الثّانى لها[٦] والأصل فى الزّوج الصّنف والنّوع من كلّ شىء ، وكلّ شيئين مقترنين ، شكلين كانا أو نقيضين ، فهما زوجان ، وكلّ واحدٍ منهما زوج[٧] ويقال للرّجل والمرأة : الزّوجان . قال الله

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٩/٩٧ .
(٢) تفسير الطّبرىّ ٩/٩٧ .
(٣) تفسير الطّبرىّ ٩/٩٧ . و٤/١٥٠ .
(٤) تفسير الطّبرىّ ٤/١٥٠ .
(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ : « زوج » .
(٦) تفسير الطّبرىّ ٤/١٥٠ .
(٧) لسان العرب : « زوج » .

تعالى : ثمانية أزواج ، يريد ثمانية أفراد . وقال : احمل فيها من كلٍّ زوجين اثنين[١] وزوج المرأة بعلها . وزوج الرّجل امرأته . ابن سيده : والرّجل زوج المرأة ، وهي زوجه وزوجته[٢] وحينما يكون الرّجل زوج المرأة والمرأة زوج الرّجل بمعنى القرين فى حقّ الزّوج والزّوجة فذلك معناه أنّ كلاً من الزّوجين بمثابة النّصف المكمل للآخر . فلا تستقيم الحياة للذّكر دون الأنثى ، وللأنثى دون الذّكر ولا تهنأ . وهذا المعنى عبّرت عنه الآية الكريمة بالقول : ﴿ ليسكن إليها ﴾ والمعنى ليهدأ الزّوج بقرب زوجه منه ويطمئنّ ، يهنأ بدنوّه منها ويسعد . وتبلغ السّكينة أوجها والنّشوة منتهاها حينما يغشى الزّوج زوجه ، ويسترها بجسده ، ويتّصل بها جنسيًّا ، ويجامعها ، وهذه المعاني عبّرت عنها الآية الكريمة بالقول : ﴿ فلمّا تغشّاها ﴾ والمعنى فلمّا تدثّرها لقضاء حاجته منها فقضى حاجته منها[٣] .

وكما يسكن الرّجل للمرأة تسكن المرأة للرّجل ، وكما تصون الزّوجة زوجها عن الحرام يصون الزّوج زوجته . ومن هنا نُزِّل كلٌّ من الزّوجين من الآخر منزلة اللّباس الّذى يقى الجسد فى المحسوسات أنواع الأذى والقذى وذلك فى قول الحقّ جلّ وعلا[٤] : ﴿ هنّ لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهنّ ﴾ وكما كان لباس الثّياب جلالاً وجمالاً وكمالاً حينما يستر الجسد ويتجمّل به الإنسان ويتزيّن فى حدود ما سمح به الشّارع الحكيم كان لباس الزّوجين المعنويّ كذلك حينما يتحقّق الاتّصال الشّرعيّ بين الزّوجين ، ذلك الاتّصال الّذى تكون المودّة والرّحمة لُحْمته والّذى يكون ابتغاء ما كتب الله تعالى للزّوجين من الولد سَداه[٥] وإلى المودّة والرّحمة أشار قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة الرّوم[٦] : ﴿ ومِنْ آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّةً ورحمة . إنّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكّرون ﴾ وإلى

---

(١) لسان العرب : « زوج » .
(٢) لسان العرب : « زوج » .
(٣) تفسير الطّبريّ ٩٧/٩ .
(٤) سورة البقرة ١٨٧ .
(٥) اللّحمة بضمّ اللاّم ما نُسِجَ من الثّوب عَرْضًا والسَّداة بفتح السّين ما نُسج طولاً .
(٦) الآية ٢١ .

الولد الغاية الحقيقيّة من الزّواج أشار قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة البقرة[١] : ﴿ فالآن باشروهنّ وابتغوا ما كتب الله لكم ﴾ وإلى الولد أشارت كذلك الآية الكريمة الّتى نحن بصددها فى القول : ﴿ فلمّا تغشّاها حملت حملاً خفيفًا فمرّت به﴾ وفى الكلام محذوفٌ ترك ذكره استغناءً بما ظهر عمّا حُذِف وذلك قوله : فلمّا تغشّاها حملت . وإنّما الكلام : فلمّا تغشّاها فقضى حاجته منها حملت[٢] .

والحمل يكون خفيفًا فى أوّله ، لا تشعر به المرأة ولا تعلم به إلاّ بعد حين . وقد عبّرت الآية الكريمة عن هذه الفترة المبكّرة من الحمل الّتى لا تشعر بها المرأة حتّى ولو علمت بها بالقول : ﴿ حملت حملاً خفيفًا فمرّت به ﴾ ومعنى مرّت به ، قامت به وقعدت[٣] ذهبت وجاءت لخفّته[٤] وبمرور الوقت ينمو الجنين بإرادة الله تعالى وتتحوّل الخفّة بالتّدريج ثِقَلاً[٥] وإلى هذه المعانى أشار قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة المؤمنون[٦] : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سُلالةٍ[٧] من طين . ثمّ جعلناه نطفةً فى قرارٍ مكين . ثمّ خلقنا النّطفة علقةً فخلقنا العلقة مضغةً فخلقنا المضغة عظامًا فكسونا العظام لحمًا ثمّ أنشأناه خلقًا آخر . فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ .

وإلى مرحلة الثّقَل والاستبشار بالمولود والأمل فى فضل الله تعالى بأن يكون الجنين كامل الخَلْق حسن الخُلق وإلى شعور الوالدين بفضل الله تعالى عليهما وإلى ما يجب عليهما من شكرٍ لله تعالى على ذلك أشارت الآية الكريمة بالقول : ﴿ فلمّا أثقلت دعوا الله ربّهما لئن آتيتنا صالحًا لنكوننّ من الشّاكرين ﴾ ونستطيع أن نفهم أنّ هذا القول جرى على لسان آدم وحوّاء عليهما السّلام وعلى لسان كلّ أبوين مؤمنين . وكيف لا يكون الوالدان شاكرين لله تعالى حينما يتبيّنان المولود كامل

---

(١) الآية ١٨٧ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٩٧/٩ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٩٧/٩ وتفسير ابن كثير ٢٧٤/٢ .
(٤) الجلالين .
(٥) الثِّقل بكسر الثّاء وفتح القاف ضدّ الخفّة ، وبكسر الثّاء وسكون القاف الحِمْل الثّقيل .
(٦) الآيات ١٢ ـ ١٤ .
(٧) السّلالة : الخلاصة والصّفو الّذى يُسَلّ من الأرض . مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : «سل» ٢٣٧ .

الخَلْق ، وحينما يكون إذا بلغ سنّ الرّشد مسلمًا لله ربّ العالمين مؤمنًا تقيًّا حسن الخُلُق . ونستطيع أن نفهم أنّ آدم وحوّاء عليهما السّلام قد قاما بذلك الشّكر لله تعالى كما قام به كلّ أبوين مسلمين لله ربّ العالمين . ونستطيع أن نفهم كذلك أنّ الآية الكريمة التّالية تتحوّل إلى الحديث عن الوالدين غير المسلمين لله ربّ العالمين فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٩٠)

قال تعالى : ﴿ فلمّا آتاهما صالحًا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عمّا يشركون ﴾ .

إنّ جنس الوالدين غير المسلمين لله ربّ العالمين وغير الصّالحين حيما أعطاهما الله تعالى ، فضلاً منه ونعمة ، ولدًا صالحًا كامل الخلق وصفحةً بيضاء نقيّةً ، جعلا لله تعالى شركاء فيما آتاهما بأن سمّيا الولد مثلاً عبد العزّى وعبد مناة على غرار ما يفعل الملحدون في أسمائه جلّ وعلا . فتعالى الله عزّ وجلّ علوًّا كبيرًا وتعظّم عمّا يقول أولئك المشركون مع الله تعالى سواه الّذين فسدت فطرتهم وأفسدوا فطرة أولادهم فانحرفوا بها عن التّوحيد إلى الشّرك . إنّ المفروض في هؤلاء وأمثالهم أن يسمّوا أولادهم عبد العزيز وعبد المنّان وليس عبد العزّى وعبد مناة ، وأن يسمّوهم عبد الله لأنّ لفظ الجلالة : ﴿ الله ﴾ عظيم أسماء الله تعالى الحُسْنى وليس عبد اللاّت ، وأن يسمّوهم عبد الرّحمن لأنّ لفظ : ﴿ الرّحمن ﴾ عظيم صفات الله تعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد ، وما إلى ذلك من أسماء الله تعالى الحُسْنى التّسعة والتّسعين ، وأن يسمّوهم مِنَ الأسماء الحَسَنة. عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ : إنّ أحبّ أسمائكم إلى الله عبد الله وعبد الرّحمن[1] . ومن السُّنّة أن يُختارَ للمولود اسمٌ حسن[2] .

---

(١) صحيح مسلم ١١٣/١٤ وانظر في صحيح مسلم ١١٢/١٤ - ١١٦ بيان ما يستحبّ من الأسماء وفتح الباري ٥٧٠/١٠ باب أحبّ الأسماء إلى الله عزّ وجلّ . (٢) فقه السّنّة ٢٨٠/٣ .

ويستمرّ السّياق فى الإنكار على المشركين شركهم ويقرّر عجز الآلهة المعبودة من دون الله تعالى وذلك فى .

الآيـات رقـم (١٩١ ـ ١٩٣)

قال تعالى : ﴿ أَيُشْرِكون ما لا يَخْلُقُ شيئًا وهم يُخْلَقون . ولا يستطيعون لهم نصرًا ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتّبعوكم . سواءٌ عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون ﴾ .

تنكر الآية الكريمة الأولى على المشركين أن يشركوا مع الله تعالى خالق كلّ شيءٍ الآلهة المزعومة الّتى لا تخلق شيئًا ، بل إنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذى خلقها وخلق كلّ شيء . فكيف يصحّ عقلاً أن يُشْرَك بالله تعالى بديع السّماوات والأرض خالق كلّ شيء الآلهة المزعومة المخلوقة هي ذاتها والّتى لم تخلق شيئًا ولن تستطيع أن تخلق شيئًا ولو كان ذبابةً أو بعوضة .

وإذا كانت الآية الكريمة قد أنكرت أن يُسَوَّى فى العبادة بين الخالق لكلّ شيءٍ وبين الآلهة المزعومة العاجزة عن خلق أيّ شيء بل المخلوقة هي ذاتها ، فإنّ الآية الكريمة الأخرى تستمرّ فى الإنكار وتؤكّد عجز تلك الآلهة . إنّها لا تستطيع أن تجلب لعابديها نصرًا ، بل إنّها عاجزةٌ عن نصر أنفسها . إنّ العاجز عن نصر نفسه أعجز عن نصر غيره من باب الأَحْرى والأولى . وما معنى عجز الآلهة المزعومة عن نصر غيرها ؟ معنى ذلك خِذْلان عابديها . وما معنى عجز الآلهة المزعومة عن نصر أنفسها ؟ معنى ذلك تأكيد عجزها . والمعروف أنّ العاجز عن جلب النّصر وهو ضربٌ من النّفع ، أعجز عن دفع الهزيمة وهي ضربٌ من الضّرّ . وذلك معناه أنّ العاجز عن جلب النّفع أعجز عن دفع الضّرّ .

وإذا كانت الآيتان الكريمتان قد أكّدتا عجز الآلهة المزعومة عن جلب النّفع ودفع الضّرّ فإنّ الآية الكريمة الثّالثة قرّرت امتناع تلك الآلهة المزعومة عن اتّباع الهدى ، بل عجز تلك الآلهة عن مجرّد السّماع فضلاً عن سماع دعوة الحقّ سماع قبول ، واتّباع صوت الحقّ ، والاهتداء بنوره ، والدّعوة إليه . إنّ تلك الآلهة المزعومة لا تعقل أصلاً وبالتّالى يستوى فى حقّها دعوة الدّاعى إذا دعاها وصمته المطبق .

ولا يكاد ينتهى العجب من الإنسان الّذى أسبغ الله تعالى عليه نعمه العظيمة وفى مقدّمتها العقل حينما يشرك بالله تعالى تلك الآلهة المزعومة الّتى لا عقل لها !

ويكون المعبودون أحيانًا من البشر . ومن هؤلاء المعبودين من ليس راضيًا عن عبادته بل ليس عنده علمٌ بذلك ، ومن هؤلاء من هو سعيدٌ بذلك بل يدعو إليه . وإلى المعبودين من العقلاء أشارت .

الآيـــة رقـــم (١٩٤)

قال تعالى : ﴿ إنّ الّذين تدعون من دون الله عبادٌ أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ﴾ .

جمع العبد الّذى هو مسترَقٌّ عبيد . وجمع العبد الّذى هو العابد عباد[1] جاء فى اللّسان[2] : « قال الأزهريّ : اجتمع العامّة على تفرقة ما بين عباد الله والمماليك فقالوا : هذا عبدٌ من عباد الله ، وهؤلاء عبيدٌ مماليك . قال : ولا يقال عَبَدَ يَعْبُد عِبادةً إلاّ لمن يعبد الله . ومَنْ عَبَد دونه إلـٰهًا فهو من الخاسرين » .

خلق الله سبحانه وتعالى الجنّ والإنس كي يفردوه جلّ وعلا بالعبادة . قال عزّ من قائل[3] : ﴿ وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون ﴾ والعجيب بشأن بعض

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « عبد » ٣١٩ .

(٢) « عبـــد » .

(٣) سورة الذّاريات ٥٦ .

عباد الله تعالى من البشر أنّهم يصرفون العبادة عن الله تعالى إلى أمثالهم من البشر من عباد الله تعالى . ومِنْ هؤلاء العِباد الأمواتُ والأحياء . ومِنْ هؤلاء العباد من لا علم له بعبادة هؤلاء المشركين له وارتكابهم هذا الذّنب الّذى لا يغفره الله تعالى ، فضلاً عن أن يكون راضيًا عن عمل هؤلاء السّفهاء . ومن هؤلاء العباد من يعلم بذلك ويرضى ويسعد . بل يدعو إلى ارتكاب الذّنب الّذى لا يغفره الله تعالى وهو الإشراك مع الله تعالى فى العبادة .

والآية الكريمة تخاطب أولئك العابدين الّذين يدعون أولئك المعبودين من دون الله تعالى وتقول لهم : إنّ الّذين تدعونهم من دون الله تعالى وتشركونهم مع الله تعالى فى العبادة عبادٌ لله تعالى أمثالكم . إنّ المفروض فى هؤلاء العباد الّذين تدعونهم من دون الله تعالى ، وإنّ المفروض فيكم أيّها المشركون أن تفردوا الله تعالى وحده لا شريك له بالعبادة . وإنّ أولئك العباد الّذين تشركونهم مع الله تعالى فى العبادة ، سواءٌ أكانوا أحياءً أم أمواتًا ، راضين عن عبادتكم لهم أم كارهين ، هم عبادٌ لله تعالى أمثالكم ، لا يفوتونكم أيّها العابدون بشىء ، ولا يفوقونكم باختصاص . فهلاّ كففتم أيّها العابدون عن غيّكم وامتنعتم عن ارتكاب الذّنب الّذى لا يغفره الله تعالى . وهلاّ تدبّرتم أحسن القول فتحوّلتم موحّدين لله تعالى ربّ العالمين .

وإنّ أقرب دليلٍ ينبغى عليكم أن تستعملوه كي تهجروا عبادة هؤلاء العباد وتتحوّلوا إلى عبادة ربّ العباد هو أن تدعوا هؤلاء المعبودين كي تتبيّنوا أنّهم لن يستجيبوا لكم . إنّهم حينما لا يستجيبون لكم فذلك معناه أنّكم لستم صادقين فى زعمكم أنّهم آلهة تستحقّ أن تعبد من دون الله تعالى . إنّ المستحقّ للعبادة هو الله تعالى الفعّال لما يريد القادر على كلّ شىءٍ جلّ وعلا .

وتؤكّد الآية الكريمة التّالية عجز تلك الآلهة فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٩٥)

قال تعالى : ﴿ ألهم أرجلٌ يمشون بها ، أم لهـم أيدٍ يبطشـون بهـا ، أم لهـم أعـينٌ يبصرون بها ، أم لهـم آذانٌ يسـمعون بهـا . قـل ادعـوا شـركاءكم ثـمّ كيـدونِ فـلا تُنْظِرون ﴾ .

تسأل الآية الكريمة فى إنكار : ألتلك الآلهة المعبـودة مـن دون الله تعـالى ، سـواءٌ كانت عاقلةً أو غير عاقلة ، أرجلٌ يمشون بهـا فـى قضـاء حوائـج العـابدين وتحويـل أمانيهم وأحلامهم إلى حقائق فى دنيا الواقع . والجواب بطبيعـة الحـال بـالنّفي . لأنّ القدرة الّتى منحها الله تعالى العقلاء محـدودة ، ولأنّ العقـلاء مقهـورون بقـدرة الله تعالى ، الفعّال لما يريـد والّـذى لا يتـمّ شـيءٌ إلاّ بإذنـه . أمّـا غـير العقـلاء فعجزهـم أوضح.. ويلاحظ أنّ الآيـة الكريمـة تشـير إلى الأرجـل ابتـداءً ، لأنّ ممارسـة القـدرة تفترض الوصول إلى ميدان العمل ومكان البطش .

ولّما كان المتبادر إلى كلّ ذهن أنّ العمل فى ميـدان البطـش وممارسـة القـدرة يتـمّ باليد أوّلاً فإنّ الآية تسـأل فـى إنكـارٍ بعـد ذلـك : ﴿ أم لهـم أيـدٍ يبطشـون بهـا ﴾ والجواب بطبيعة الحال بالنّفي للسبب ذاته الّذى تبيّن فى حقّ الأرجل . وليس بخـافٍ العلاقة المتينة بين الأيدى والأرجل فى الجزئيّتين الكريمتين . وهـذه العلاقـة المركـوزة فى الطّباع بينهما نوعٌ من الرّباط بين أجزاء الكـلام . إنّ المشـي يكـون بـالأرجل . وإنّ البطش يكون بالأيدى .

ولّما كانت الآية الكريمة فى سؤاليها الإنكاريّين عن الأرجل والأيـدى إنّمـا تنفـى قدرة تلك الآلهة المزعومة عن تقديم أي نفعٍ للعابدين وإيصال أدنى خـيرٍ إليهـم فـإنّ الآيـة الكريمـة بقصـد تـأكيد خسـارة العـابدين وضلالتهـم تسـأل : ﴿ أم لهـم أعـينٌ

يبصرون بها ﴾ والجواب بطبيعة الحال بالنّفي لأنّ الهدى هدى الله تعالى ولأنّ الله سبحانه وتعالى عن طريق الوحي قد هدانا السّبيل وأنار لنا الطّريق . إنّ عباد الله تعالى الصّالحين يهدون بإذن الله تعالى إلى طريق الله تعالى المستقيم . أمّا الضّالّون المضلّون فإنّهم عمي البصائر وبذلك هم فى مجال المحسوسات بمثابة العمي الّذين لا يُبْصِرون . ويتأكّد العمى فى حقّ ما لا يعقل . فكيف ينتظر من أعمى البصيرة أعمى العينين أن يهدى الآخرين إلى الصّراط المستقيم أو إلى الطّريق القويم .

ومن البيّن أنّ الآية الكريمة قدّمت العين على الأذن لحكمة ، وذلك على غرار تقديم الرّجل على اليد لحكمة . وتتّضح الحكمة حينما نتبيّن أنّ الهدف من استخدام القدرة عن طريق الرّجل الّتى تمشى واليد الّتى تبطش هو فعل الخير وإيصال نور الهداية . وحينما نقارن بين العين والأذن من هذه الزّاوية نتبيّن أنّ العين فى مجال رؤية النّور حينما يكون بعيدًا أقدر من الأذن فى مجال سماع الصّوت حينما يكون بعيدًا . إنّ كلّ عينٍ صحيحةٍ تستطيع بإذن الله تعالى أن ترى الشّمس وضوءها نهارًا، القمر ونوره ليلاً ، وكذلك ضوء النّجم ونور الكوكب . ما أبعد الشّقّة بين العين وبين ضوء المرئيّ ونوره . فلنقارن بين هذه المسافة البعيدة الّتى يرتادها البصر وبين مسافة السّمع المحدودة فى حال قرب الدّعاء أو بعد النّداء . إنّه لا مجال للمقارنة بين المسافتين . ولمّا كانت الآية الكريمة تتحدّث عن تسخير القدرة من أجل الخير والهداية فمن الطّبيعيّ أن تقدّم فى مجال الهداية العين على الأذن ، إثر تقديم الرّجل على اليد فى مجال القدرة أو القوّة .

ويأتى أخيرًا هذا السّؤال الإنكاريّ : ﴿ أم لهم آذانٌ يسمعون بها ﴾ وإنّ ما قيل عن نور الهداية الّذى تراه العين يقال عن صوت الحقّ الّذى تسمعه الأذن . إنّ بصيرة المهدى النّيّرة إذا كانت تهدى إلى الطّريقة الّتى هي أقوم كما أمر الله تعالى فإنّ أذن المهتدى الواعية الّتى سمعت دعوة الحقّ ورحّبت بها لا يُسْمَعُ من صاحبها المهتدى إلاّ أحسن القول . وقد عرفنا أنّ هذا المهتدي المنفّذ لأحكام الله تعالى ليس هو الّذى

تعنيه الآية الكريمة إنّما تعنى الآية الكريمة بشأن العين أعمى البصيرة ، وبشأن الأذن ذلك الّذى لا يسمع دعوة الحقّ سماع قبول ، فهو بمنزلة الأصمّ . أمّا الّذى لا يعقل فإنّه أصمّ بطبعه ، وقبل ذلك هو أعمى بطبعه . وما الخير الّذى ينتظر فى مجال القول من ذلك الأصمّ الّذى لم يسمع أحسن الحديث سماع قبول أو الّذى لا يسمع أصلاً؟ لا خير يُرْجَى منه مطلقًا . وهذا هو المعنى الّذى قرّرته الآية الكريمة بسؤالها الإنكاريّ .

وتأكيدًا لعجز الآلهة المزعومة عن إيصال الأذى إلى الآخرين فضلاً عن النّفع تأمر الجزئيّة الأخيرة المصطفى ﷺ أن يقول لأولئك المشركين المصرّين على شركهم وعلى عبادة تلك الآلهة المزعومة العاجزة تعالَوْا وادعوا شركاءكم الّذين تشركونهم مع الله تعالى فى العبادة كي يوصلوا إليَّ كلّ كيدٍ عليه يقدرون وكلّ ضرّ لي يتمنّون كي يوصلوه إليّ على الفور لا على التّراخي . إنّهم جميعًا أعجز من أن يوصلوا إليّ أدنى أذى فى الحال أو فى المآل . وإنّ عليكم أيّها المشركون أن تتركوا عبادة تلك الآلهة العاجزة وأن تتحوّلوا إلى عبادة الله تعالى الواحد القهّار . والآية الكريمة التّالية تتحدّث عن بعض صفات هذا الإلـه الواحد فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٩٦)

قال تعالى : ﴿ إنّ وليّي الله الّذى نزّل الكتاب وهو يتولّى الصّالحين ﴾ .

فى مقابل عجز الآلهة المزعومة الّتى لا تملك لنفسها فضلاً عن غيرها شيئًا من الضّرّ ومن باب أولى النّفع ، يعلن المصطفى ﷺ . بأمرٍ من ربّه جلّ وعلا ، وعلى رءوس الأشهاد ، بأنّ وليّه عليه الصّلاة والسّلام وراعي مصالحه ومتولّي شئونه هو الله تعالى

الّذى نزّل القرآن الكريم على قلب المصطفى ﷺ ، والّذى يتولّى الصّالحين ويرعى شئونهم : ﴿ ذلك بأنّ الله مولى الّذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم ﴾[1] .

وفى مقابل نصر الله تعالى ورسوله ﷺ الّذى تقرّره الآية الكريمة تنفى الآية الكريمة التّالية نصر الآلهة المزعومة عابديها بل نصر أنفسها فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٩٧)

قال تعالى : ﴿ والّذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴾ .

وجه الشّبه كبيرٌ بين هذه الآية الكريمة وبين الآية الكريمة الثّانية والتّسعين بعد المائة. قال تعالى : ﴿ ولا يستطيعون لهم نصرًا ولا أنفسهم ينصرون ﴾ ومن البيّن أنّ الأسلوب هنالك يستعمل ضمير جماعة الغائبين فى حين يستعمل الأسلوب هنا ضمير جماعة المخاطبين . ومن البيّن كذلك أنّ الحديث هنالك ينفى القدرة على نصر العابدين عن المعبودين العاقلين وغير العاقلين ، فى حين يخلص الحديث هنا عن المعبودين غير العاقلين ، أي الأصنام . ولا شكّ أنّ العجز فى حقّ الأصنام آكد . وهذا المعنى تؤكّده .

الآيـــة رقـــم (١٩٨)

قال تعالى : ﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴾ .

الله جلّ وعلا : ﴿ فعّالٌ لما يريد ﴾[2] والله جلّ وعلا : ﴿ ليس كمثله شىءٌ وهو السّميع البصير ﴾[3] و﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللّطيف

---

(١) سورة محمّد ١١ .
(٢) سورة البروج ١٦ .
(٣) سورة الشّورى ١١ .

الخبير ﴾[1] وكما تدرّجت الآية الكريمة السّابقة فى تأكيد عجز الآلهة المزعومة بأن نفت قدرتها على نصر عابديها أوّلا ، وقدرتها على نصر أنفسها آخرًا ، تدرّجت هذه الآية الكريمة التّالية فى تأكيد جهل هذه الآلهة المزعومة . إنّها انحطّت بتلك الآلهة المزعومة عن المستوى الّذى انحطت إليه تلك الآلهة المزعومة فى الآية الكريمة الثّالثة والتّسعين بعد المائة : ﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتّبعوكم . سواءٌ عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون ﴾ إنّ الآية الكريمة انحطّت بتلك الآلهة المزعومة إلى درك ما لا يسمع ولا يبصر . وقد عبّرت الآية الكريمة عن هذه المعانى أبلغ تعبير .

وأوّل ما يلفت الانتباه أنّ هذه الآلهة المزعومة هي الّتي يدعوها غيرها إلى الهدى ! والمعروف أنّ الّذى يدعوه غيره إلى الهدى هو الضّالّ . وكأنّ هذه الأصنام الّتى يضلّ بها عابدوها ضالّةٌ مضلّة رغم أنّها جماد فكيف يصحّ أن تكون الأصنام معبودة!

وهذه الآلهة المزعومة لو دعيت إلى الهُدَى فإنّها لا تسمع صوت هذا الدّاعى لها من قريب سماعًا مجرّدًا . وحينما لا تسمع سماعًا مجرّدًا فإنّها لا تسمع سماعًا واعيًا من باب الأخرى والأَوْلى . وحينما لا تسمع دعاء القريب هي من باب الأحرى والأَوْلى لا تسمع نداء البعيد . وحينما يكون العاقل قادرًا بإذن الله تعالى على السّماع الواعى ، ويكون الحيوان قادرًا على السّماع المجرّد ، وتكون الأصنام عاجزةً عن السّماع المجرّد فضلاً عن السّماع الواعى فذلك معناه أنّ الأصنام أحطّ من الحيوان وأقلّ رتبةً من الأنعام . وحينما تكون الأصنام بذلك الدّرك من الانحطاك يكون عابدوها من العقلاء الّذين عطّلوا نعمة العقل أضلّ من الأنعام وأحطّ من الحيوان .

وكما نفت الآية الكريمة عن الأصنام السّماع المجرّد نفت عنها البصر المجرّد : ﴿ وإن تدعوهم إلى الهُدَى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يُبْصِرون ﴾ .

---

(١) سورة الأنعام ١٠٣ .

إنّك أيّها الدّاعي تلك الأصنام لسماع صوت الحقّ ورؤية نور الهدى ترى تلك الأصنام بناظريك وتدرك رؤيتها بمقلتيك[١] وتراها بعينيك الاثنتين تنظر إليك بعينين ناظرتين والحقيقة أنّها تنظر إليك بعينين غير مبصرتين ، بل غير ناظرتين ! إنّ العين النّاظرة هي الّتى تمدّ طرفها إلى المنظور سواءٌ رأته أو لم تره . يقول الرّاغب الأصفهانيّ[٢] : « النّظر تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشّيء ورؤيته .... ويقال : نظرت إلى كذا إذا مددت طرفك إليه رأيته أو لم تره ، ونظرت فيه إذا رأيته وتدبّرته» وإنّ « البصر يقال للجارحة النّاظرة نحو قوله تعالى ﴿ كلمح البصر ﴾ ﴿ وإذ زاغت الأبصار ﴾ وللقوّة الّتى فيها » .

إنّك أيّها الإنسان تنظر بعينيك إلى تلك الأصنام وتبصرها بمقلتيك وتراها بناظريك، وفى المقابل فإنّ تلك الأصنام لا تُبصِر ولا ترى لأنّها جماد ، بل إنّ أعينها تراها ناظرةً إليك ومتّجهةً نحوك ، والحقيقة أنّها لا تنظر إليك فضلاً عن أن تنظر فيك . إنّ أعينها أشكالٌ لا حقائق وراءها وحينما تكون الأصنام جماداتٍ فإنّ أعينها لا تُبْصر ولا ترى ، ولا تنظر فيك ولا تدركك ، بل إنّها لا تنظر إليك ولا تدركك . إنّها لا تنظر أصلاً لأنّ ليس لها الأعين أصلاً . ما أسخف هذه الأصنام الّتى ليس لها القوّة النّاظرة فكيف يريد عابدوها الهداية منها ، وما أهون شأن هذه الأصنام الّتى لا تسمع أصلاً فكيف يُنْتَظَرُ منها أن تسمع صوت الهدى سماع قبولٍ ، بل كيف يُنْتَظَر منها أن تهدي عابديها من البشر العقلاء . الحقيقة أنّ الإنسان لا يكاد يصدّق بأنّ عاقلاً يمكن أن يعبد تلك الأصنام الّتى لا تعقل . وحينما يوجد من البشر من يعبد تلك الأصنام فذلك معناه أنّه سَفِهَ نفسه وانحطّ بإنسانيّته إلى دركٍ يسفل كلاً من الحيوان والجماد فى الذّلّ والهوان .

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « رأى » ٢٠٨ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « نظر » ٤٩٧ .

[٢٦]

« من توجيهات القرآن الكريم الهدى والرّحمة للمؤمنين »

الآيــات (١٩٩ ـ ٢٠٦)

خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ
بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ
ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟
فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ
لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ
قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ
وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ
فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ
فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ
وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ
لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

يأمر السّياق المصطفى ﷺ أن يأخذ ما يأتيه من النّاس ويقبل ما يسهل عليهم دفعه ولا يشقّ عليهم بذله ، وألاّ يلحّ فى الطّلب ولا يستقصى فى الصّفات . كما يؤمر عليه الصّلاة والسّلام بأن يأمر بالمعروف شرعًا وعقلاً ، وأن يُعْرض عن الجاهلين السّفهاء . وبذلك يقدّم السّياق مجموعةً من أهمّ نعوت القيادة المسلمة النّاجحة . إنّ الحِلْم ينبغى أن يكون لُحْمتها ، وإنّ الاستمساك بتعاليم الإسلام ينبغى أن يكون سَداها . وما العمل حينما يستفزّ الجاهلون القيادة الّتى توشك أن تتجاوز تعاليم السّماء وتستجيب لنَزْغ الشّيطان الرّجيم ووسوسته . العمل هو أن تستعيذ

بالله تعالى السّميع العليم من الشّيطان الرّجيم . وإنّ من سمات المتّقين أنّهم إذا مسّهم طائفٌ من الشّيطان الرّجيم وألمّ بهم نَزْغٌ من اللّعين الطّريد تذكّروا تعاليم السّماء بعد نسيان ، وتنبّهوا بعد غفلة ، وتبيّنوا الصّراط المستقيم ، وأبصروا النّور المبين ، فكانوا من المهتدين . أمّا شياطين الإنس فإنّ إخوانهم من شياطين الجنّ يمدّونهم في الغيّ بعد الرّشد ، والضّلال بعد الهدى ثمّ لا يُقْصر شياطين الجنّ ولا يكفّون عن التّمادى في الإضلال ، ولا يُقْصِر شياطين الإنس ولا يكفّون عن تنفيذ تعاليم إخوانهم شياطين الجنّ . وممّا لم يُقْصِر فيه شياطين الجنّ في حقّ إخوانهم شياطين الإنس من كفّار مكّة الإيحاء للكافرين باقتراح آياتٍ محسوسةٍ يأتى بها المصطفى ﷺ بدلاً من القرآن الكريم ، وإلحاح الكافرين في طلب الإتيان بالآيات من ذات نفسه عليه الصّلاة والسّلام ، وذلك على غرار إتيان النّبيّ ﷺ بالقرآن الكريم ، حسب زعمهم ، من ذات نفسه عليه الصّلاة والسّلام ! إنّ شياطين الجنّ يزيّنون لشياطين الإنس الكذب وزخرف القول وباطل العمل ، وإنّ شياطين الإنس يستجيبون لكلّ تلك التّخرّصات بما فيها الزّعم بأنّ القرآن الكريم جاء به عليه الصّلاة والسّلام من ذات نفسه . ويكون الرّدّ الفوريّ على القوم وذلك بأمر المصطفى ﷺ أن يقول لهم بأنّه عليه الصّلاة والسّلام إنّما يتّبع ما يوحى به إليه ربّه جلّ وعلا من قرآنٍ كريم تبيّن معانيه السّنّة النّبويّة المطهّرة الموحى بها هي الأخرى من ربّ العالمين . وإنّ هذا القرآن بصائر نيّرة لكم يا أهل مكّة ويا أيّها النّاس ، وهدًى من الضّلالة ورحمةٌ من ربّ العالمين للمؤمنين بالله تعالى ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمّد ﷺ رسولاً وبالقرآن الكريم إمامًا . أمّا المطلوب من المؤمنين تجاه القرآن الكريم فهو قراءته سرًّا وعلانية ، والاستماع والإصغاء له ، والإنصات والتّدبّر له ، والعمل بمقتضاه لعلّ رحمة الله تعالى الواسعة تشمل أهل القرآن الكريم . وإذا كان حظّ هذا النّوع من العبادة جهرًا وسرًّا كبيرًا فإنّ حظّ النّوع الآخر من العبادة سرًّا وجهرًا ، وهو ذكر الله تعالى ، كبيرٌ أيضًا . إنّ المطلوب من المسلم لله تعالى ربّ

العالمين أن يذكر ربّه جلّ وعلا فى نفسه تضرّعًا وتخشّعا ، خوفًا من عذابه وإشفاقًا من عقابه ؛ وأن يذكر ربّه جلّ وعلا فوق السّرّ ودون الجهر ، بالغدوّ صباحًا والآصال مساءً وفى كلّ الأوقات ، وعليه ألاّ يكون من الغافلين عن ذكر الله تعالى وبخاصّةٍ فى أثناء اللّيل . وإنّ على المسلم لله ربّ العالمين أن يتّخذ من الملائكة الكرام أسوةً حسنةً فى إفراد الله تعالى بالعبادة ، وتنزيهه جلّ وعلا عن كلّ ما لا يليق به عزّ وجلّ ، وتطبيق الأركان ابتداءً بالصّلاة المتضمّنة للسّجود أبلغ الأدلّة على الخضوع والتّذلّل لله ربّ العالمين . ومن الجائز أن يقال إنّ الآيات الكريمات الثّلاث الأخيرات من السّورة الكريمة تتمشى على التّوالى مع المعانى الثّلاثة فى الآية الكريمة من القسم : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ إنّ ضروب العناية بالقرآن الكريم فى أولى الآيات الكريمات الثّلاث نوعٌ من الأخذ . وإنّ ذكر الله تعالى فى كلّ الأوقات والأحوال نوعٌ من فعل الخير والأمر بالمعروف . وإنّ عدم الاستكبار عن عبادة الله تعالى استمرارٌ للإعراض عن الجاهلين الّذين يتجلّى منتهى سفههم فى الاستكبار والاتنكاف عن عبادة الله تعالى . وإنّ عناية السّورة الكريمة بالقرآن الكريم فى آخرها إثر العناية به فى أوّلها من وسائل الرّبط بين الآيات الكريمة المتباعدة فى السّورة الكريمة الّتى تبدأ بالحروف المقطّعة : ﴿ المص ﴾ والمعروف أنّ كلّ السّور الّتى تبدأ بالحروف المقطّعة يأتى فيها الانتصار للقرآن الكريم على الفور أو على التّراخى . وإنّ الانتصار للقرآن الكريم فى سورة الأعراف يأتى فى أوّل السّورة وأخرها على السّواء . بمعنى أنّه يأتى على الفور وعلى التّراخى معًا .

الآيـــة رقـــم (١٩٩)

قال تعالى : ﴿ خذ العفو وأمر بالعُرْف وأعرض عن الجاهلين ﴾ .

تخاطب الآية الكريمة المصطفى ﷺ فى المقام الأوّل ، وكأنّ الآية الكريمة فى توجيهاتها السّاميّة تبيّن أهمّ صفات القيادة المسلمة النّاجحة ، وكأنّ الآية الكريمة تخاطب بعد المصطفى ﷺ كلّ فردٍ من أفراد هذه الأمّة المسلمة ، وبخاصّةٍ حينما يكون فى مركز القيادة .

إنّ أوّل ما تأمر به الآية الكريمة المصطفى ﷺ فى القول : ﴿ خذ العفو ﴾ هو أن يقبل عليه الصّلاة والسّلام من الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم ومن النّاس العفو من أخلاقهم[١] وما جادت به نفوسهم دون تكلّف ، وأن يأخذ منهم ما سهل عليهم دفعه ، ولم يشقّ عليهم قصده وتناوله[٢] وكأنّ الجزئيّة الكريمة تذكّرنا بما جاء فى الآية الكريمة التّاسعة عشرة بعد المائتين من سورة البقرة خطابًا للمصطفى ﷺ : ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾ والعفو : ما سهل وتيسّر وفضل ولم يشقّ على القلب إخراجه[٣] وكأنّ الملابسات المتعلّقة بعفو المال والإنفاق بشأن آية سورة البقرة تنسحب على العفو الّذى يؤمر عليه الصّلاة والسّلام فى آية سورة الأعراف بأن يقبله من الصّحابة والنّاس فى مجال الأخلاق والمعنويّات . وكأنّ القول : ﴿ خذ العفو ﴾ يأمر القيادة المسلمة بألاّ تستقصي بطلب الكمال من النّاس فى مجال الأخلاق والمعنويات ، وبأن تُغْمِض فيه على نحو ما جاء فى قول الحقّ جلّ وعلا فى الآية الكريمة السّابعة والسّتّين بعد المائتين من سورة البقرة : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا

---

(١) صحيح البخاريّ ٦/٧٦ .

(٢) انظر هنا مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « عفا » ٣٣٩ .

(٣) تفسير القرطبيّ ٨٦٩ .

أنفقوا من طيّبات ما كسبتم وممّا أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمّموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلاّ أن تغمضوا فيه . واعلموا أنّ الله غنيٌّ حميد ﴾ وقوله تعالى: ﴿ إلاّ أن تغمضوا فيه ﴾ كذا قراءة الجمهور ، مِنْ أغمض الرّجل في أمر كذا إذا تساهل فيه ورضي ببعض حقّه وتجاوز[1] وكأنّ هذا القول : ﴿ خذ العفو ﴾ يأخذ منه بسببٍ قول المصطفى ﷺ : إنّما النّاس كإبلٍ مائةٍ لا يوجد فيها راحلة[2].

ومن البيّن أنّ القول : ﴿ خذ العفو ﴾ يتعلّق بما تصادفه القيادة وما يمكن أن يصل إليها ويرتدّ من الرّعيّة . إنّ من سمات القيادة ومن متعلّقات أخذها العفو من النّاس الحِلْم ، وسعة الصّدر ، والتّغاضي عن الهفوات ، وعدم الاستقصاء في المطالبة بالواجبات والتّبعات وما إلى ذلك .

وإذا كان القول : ﴿ خذ العفو ﴾ يتعلّق بالاستقبال من النّاس بصفةٍ عامّة ، فإنّ القول بعد ذلك : ﴿ وأمر بالعُرْف ﴾ يتعلّق بالإرسال إلى النّاس وبالإيصال إليهم . إنّ ربّ العزّة يأمر حبيبه ﷺ بأن يأمر النّاس بالعُرْف أي بالمعروف[3] .

إنّ ربّ العزّة يأمر حبيبه ﷺ بأن يأمر النّاس بالمعروف شرعًا وعقلاً في مجالي القول والفعل . والمعروف أنّ المصطفى ﷺ هو الموحى إليه من ربّ العالمين وقد قال عزّ من قائلٍ في حقّه عليه الصّلاة والسّلام في سورة النّجم[4] : ﴿ والنّجم إذا هوى . ما ضلّ صاحبكم وما غوى. وما ينطق عن الهوى . إنْ هو إلاّ وحيٌ يوحَى ﴾.

وحينما يكون القول : ﴿ وأمر بالعرف ﴾ متّجهًا إلى القيادة المسلمة ومتضمّنًا بعض صفاتها فذلك معناه أنّ هذا القول : ﴿ وأمر بالعرف ﴾ ذو علاقةٍ بمسئوليّة

---

(١) تفسير القرطبيّ ١١٣٥ .

(٢) المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢٣٩/٦ حديث رقم ٤٥١٦ « قال ابن الأثير : الرّاحلة من الإبل : البعير القويّ على الأسفار والأحمال ، والذّكر والأنثى فيه سواء . والهاء فيها للمبالغة . وهي الّتي يختارها الرّجل لمركبه ورحله على النّجابة وتمام الخلق وحسن المنظر ، فإذا كانت في جماعةٍ من الإبل عُرِفت » وقال أيضًا : « يعني أنّ المرضيّ المنتخب من النّاس في عزّة وجوده كالنّجيب من الإبل.. » هامش المسند .

(٣) تفسير الطّبريّ ١٠٦/٩ وصحيح البخاريّ ٧٦/٦ .

(٤) الآيات ١ ـ ٤ .

القيادة المسلمة ، فإنّ عليها ألاّ تأمر الرّعيّة إلاّ بالمعروف . ومن البيّن أنّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر وجهان لدينارٍ واحد . وحينما لا تأمر القيادة والرّاعي إلاّ بالمعروف يكون من واجب الأمّة والرّعيّة أن تطيع القيادة لأنّ طاعتها من طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ . وفي هذا المعنى جاء قول الحقّ جلّ وعلا في سورة النّساء[1] : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول وأولى الأمر منكم . فإن تنازعتم في شيءٍ فردّوه إلى الله والرّسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خيرٌ وأحسن تأويلاً ﴾ .

ومن البيّن أنّ القول : ﴿ خذ العفو ﴾ يتعلّق بما تتحلّى به القيادة من فرط قدرةٍ على الاحتمال ومزيد قوّةٍ في مجال الصّبر والتّضحية . كما أنّ القول : ﴿ وأمر بالعُرْف ﴾ يتعلّق بمسئوليّة هذه القيادة أمام الله تعالى في المقام الأوّل . فإذا تحوّلنا إلى الأمر الأخير في الآية الكريمة وذلك في القول : ﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾ نتبيّن أنّه يمثّل منتهى ما يمكن أن تتعرّض له القيادة المسلمة من سوء ونكران جميل وجحد معروفٍ من سفهاء الأمّة وحمقى الرّعيّة ، في أثناء أخذ هذه القيادة العفو من الرّعيّة حينما لا يجيء من فئة السّفهاء سوى الأذى ، وفي أثناء أمر هذه القيادة بالمعروف حينما لا يجيء من فريق الحمقى من الرّعيّة سوى المنكر شَرْعًا وعقلاً . ولا ننسى أنّ السّورة الكريمة مكّيّة . وكأنّ الآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ في هذه الفترة المبكّرة من تاريخ الدّعوة الإسلاميّة أن يُعْرض عن الجاهلين ويضرب الذّكر عنهم صفحًا ، وكأنّ الآية الكريمة الّتي تخاطب وراء ذلك جنس القيادة المسلمة تأمر هذه القيادة بالإعراض عن الجاهلين الّذين يأتون من الأقوال والأفعال ما يتمشّى مع جهلهم وسفههم ، شريطة ألا يكون منهم أدنى مِساسٍ للدّين بسوء . وإنّ هذا المعنى نفهمه من هذه الحادثة الّتي رواها البخاريّ في صحيحه[2] عن « ابن عبّاس رضي الله عنهما قال : قدم عُيَيْنَةُ بن حِصْن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحُرِّ بن

---

(١) الآية ٥٩ .

(٢) ٦/٧٦ .

قيس ، وكان من النَّفَر الّذين يدنيهم عمر . وكان القرّاء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شبّانًا . فقال عُيَيْنَة لابن أخيه : يا ابن أخي لك وجهٌ عند هذا الأمير ، فاستأذِنْ لي عليه . قال : سأستأذن لك عليه . قال ابن عبّاس : فاستأذن الحُرّ لعُيَيْنَة فأذن له عمر . فلمّا دخل عليه قال : هِيْ يا ابن الخطّاب فو الله ما تُعْطينا الجَزْل ولا تحكم بيننا بالعدل . فغضب عُمَر حتّى همّ أن يوقع به . فقال له الحُرّ : يا أمير المؤمنين : إنّ الله تعالى قال لنبيّه ﷺ : ﴿ خذ العفو وأمر بالعُرْف وأعرض عن الجاهلين ﴾ وإنّ هذا من الجاهلين . والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وكان وقّافًا عند كتاب الله » « عن أبيّ قال : لمّا أنزل الله عزّ وجلّ على نبيّه ﷺ ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ قال رسول الله ﷺ : ما هذا يا جبريل ؟ قال إنّ الله أمرك أن تعفو عمّن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك »[1] .

إنّ من مقوّمات القيادة المسلمة النّاجحة الحلم فيما يتعلّق بشخصها ، الصّرامة فيما يتعلّق بالاستمساك بتعاليم الإسلام .

وما العمل حينما تهمّ النّفس الأمّارة بالسّوء امتطاء الهوى مستجيبةً لنزغ الشّيطان الرّجيم معرضةً عن أمر أرحم الرّاحمين فى حقّ ذلك السّفيه الأحمق المتطاول وفى حقّ غيره من الحمقى الجاهلين ؟ الجواب فى .

الآيــة رقــم (٢٠٠)

قال تعالى : ﴿ وإمّا ينزغنّك من الشّيطان نزغٌ فاستعذ بالله . إنّه سميعٌ عليم ﴾ .

نزغ بينهم ينزَغ وينزِغ نَزْغًا : أغرى وأفسد وحمل بعضهم على بعض . والنّزْغ : الكلام الّذى يُغْرِى بين النّاس . ونَزَغَه : حرّكه أدنى حركة . ونزغ الشّيطان بينهم

---

(٣) تفسير ابن كثير . ٢/٢٧٧ وتفسير الطّبريّ ٩/١٠٥ .

يَنْزَغ وينزِغ نزغًا أي أفسد وأغرى[١] والعياذ الالتجاء والاستناد والاستجارة من الشّرّ ، وأمّا الملاذ ففى طلب الخير[٢] .

ترشد الآية الكريمة المسلم إلى ما يعمل حينما يسوّل الشّيطان الرّجيم للنّفس الأمّارة بالسّوء ويزيّن لها أن تترك أوامر الله تعالى ونواهيه وتستجيب لوساوس الرّجيم فى سبيل إفساد ذات البين ، وأن تنقاد لِنَخْس اللّعين ونزغه وإغرائه بقول الهُجْر[٣] من القول وإتيان القبيح من الفعل . إنّ على المسلم أن يستعيذ بالله تعالى العظيم من الشّيطان الرّجيم ويلجأ إليه ويستنصر به عزّ وجلّ[٤] إنّ الله سبحانه وتعالى هو السّميع لكلّ قول ، العليم بكلّ فعلٍ وخاطرٍ على البال ووسوسةٍ فى النّفس ، المحيط بكلّ شيء . وفى معنى الآية الكريمة : « قال الزّجّاج : معناه إن نالك من الشّيطان أدنى نَزْغٍ ووسوسةٍ وتحريك يصرفك عن الاحتمال ، فاستعذ بالله من شرّه وامض على حكمك »[٥] واستجر به جلّ وعلا[٦] .

ومَنِ الّذين يستجيبون لهذه التّعاليم السّماويّة والّذين ليس للشّيطان الرّجيم عليهم سلطانٌ بإذن الله تعالى ؟ إنّهم المتّقون الّذين نصّت عليهم .

الآيــة رقــم (٢٠١)

قال تعالى : ﴿ إنّ الّذين اتّقوا إذا مسّهم طائفٌ من الشّيطان تذكّروا فإذا هم مبصِرون ﴾ .

تقرّر الآية الكريمة أنّ المؤمنين الّذين اتّقوا الله تعالى ، وامتلأت قلوبهم وأفئدتهم بخوف الله تعالى وخشيته ، وجعلوا امتثالهم لتعاليم الإسلام بفعل الأوامر واجتناب النّواهي وقايةً لهم من النّار ، وحجازًا بينهم وبين عذاب الله تعالى ، إذا مسّهم لحظةً

---

(١) لسان العرب : « نزغ » .
(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٧٨ .
(٣) الهُجْر بضمّ الهاء : القبيح من الكلام .
(٤) انظر هنا مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « عوذ » ٣٥٢ .
(٥) لسان العرب : « نزغ » .
(٦) تفسير الطّبريّ ٩/١٠٦ وتفسير ابن كثير ٢/٢٧٨ .

من اللّحظات طائفٌ من الشيطان الرّجيم ، وألمّ بهم مسٌّ من اللّعين ولَمم[1] ودار عليهم يريد اقتناصَهُمْ[2] الشّيطانُ بمسّه ، واللّعينُ بجنونه[3] تذكّروا أوامر الله تعالى ونواهيه ، ثوابه جلّ وعلا وعقابه ، فإذا هم سريعًا يبصرون الطّريق القويم ، والصّراط المستقيم ، ويهتدون بتعاليم القرآن الكريم وسنّة أشرف الأنبياء والمرسلين .

ويلاحظ فى حقّ المتّقين أنّ الّذى يريد أن ينال منهم هو مسّ الشّيطان . ومع أنّ لفظ المسّ هنا ينبّه إلى أنّ المسّ فى حكم المعنويّات فإنّه وراء ذلك ينبّه إلى أنّ المتّقين لديهم بفضل الله تعالى كمّيّةٌ موفورةٌ من الحصانة الذّاتيّة بتأثير تقوى الله تعالى لذا فإنّ منتهى ما يتمنّى اللّعين الحصول عليه فى حقّهم هو مجرّد المسّ الرّفيق فى لحظة غفلةٍ منهم .

كما يلاحظ أنّ هذا المسّ من اللّعين لا يكاد يلصق بالمتّقين فضلاً عن ملازمتهم . ويتبيّن هذا المعنى من القول : ﴿ طائفٌ من الشّيطان ﴾ الّذى يدلّ على طواف الشّيطان المستمرّ حول المتّقى من أجل أن يقتنص غفلة ، أو يجد غِرّة . وحتّى حينما يتحقّق للّعين هدفه اللّئيم وغرضه الخسيس فإنّ منتهى ما ينال من المتّقى هو مجرّد اللّمس الخفيف والمسّ الرّقيق لأنّ المتّقى سُرْعان ما يتذكّر الله تعالى ويلجأ إلى بارئه جلّ وعلا .

وينسجم التّذكّر مع المسّ الرّفيق والطّائف الّذى يحوم ويدور وينجم عن التّذكّر والوعي إبصار نور الهداية فالعودة إلى الصّراط المستقيم . ويبدو التّناغم أكيدًا بين هذه المعانى الرّقيقة ، والألفاظ الرّشيقة ، حينما نعود إلى تناغمٍ آخَرَ سابقٍ مغاير وذلك فى الآية الكريمة السّابقة . إنّنا هنالك بشأن إهاجة الشّيطان الرّجيم جنس الإنسان على الشّرور ، وتحريكه بطريقٍ مباشرٍ وأزّه أزًّا كي يأتي من الأقوال كلّ شنيع ومن الأفعال كلّ فظيع . إنّ المطلوب من جنس الإنسان فى ذلك الموقف

---

(١) انظر لسان العرب : « طيف » . (٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « طوف » ٣١١ .
(٣) انظر لسان العرب : « طيف » .

العصيب أن يلجأ إلى الله تعالى السّميع العليم ، وأن يستجير به جلّ وعلا ، ويجأر إليه بالدّعاء ، ويفرّ إليه بالاستعاذة هاتفًا من أعماقه بالقول : أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم . وهكذا يتجلّى الانسجام هناك بين المعانى وألفاظها الصّاخبة ، وذلك فى مقابل التّناغم فى الآية الكريمة الّتى نحن بصددها بين المعانى وألفاظها الهادئة .

وفى مقابل تذكّر المتّقين الصّواب ، وسرعة الإياب ، ثمّة تمادى إخوان الشّياطين فى الغيّ . وإلى هؤلاء أشارت .

الآيــة رقــم (٢٠٢)

قال تعالى : ﴿ وإخوانهم يمدّونهم فى الغيّ لا يُقْصِرون ﴾ .

إنّ شياطين الإنس الّذين اتّخذوا شياطين الجنّ أولياء من دون الله تعالى ، وسبق أن بيّنت الآية الكريمة الثّلاثون من السّورة الكريمة الّتى تحدّثت عن الفريق الّذى حقّت عليه الضّلالة صفة هذا الفريق ، قد نزّلوا من شياطين الجنّ منزلة الإخوان لتكامل الضّلالة بين الفريقين . إنّ شياطين الجنّ يزيدون شياطين الإنس فى الغيّ بعد الرّشد ، ويمدّونهم[1] فى الجهل بعد العلم ، والسّفه بعد الحلم ، والشرّ بعد الخير ، لا يَقْصُرون فى المدد بالغيّ ، ولا يفترون فى زيادة الشّرّ ، ولا يألونهم خبالاً ، ولا يدعون جهدهم فيما يورثهم الفساد ، بل يسعون ويجتهدون فيما يضرّهم بكلّ ممكن . وكما لا يَقْصُر شياطين الجنّ فى مدّ شياطين الإنس فى الغيّ لا يقصر شياطين الإنس فى تصديق ما يوحى به إليهم شياطين الجنّ من زخرف القول وغروره ، ولا يكفّون عن ارتكاب كلّ قبيح وإتيان كلّ منكر .

عن ابن عبّاس ﴿ وإخوانهم يمدّونهم فى الغيّ ثمّ لا يقصرون ﴾ قال : لا الإنس يقصرون عمّا يعملون من السّيّئات ، ولا الشّياطين تمسك عنهم[2] .

---

(١) تفسير الطّبري ٩/١٠٨ .

(٢) تفسير الطّبري ٩/١٠٨ .

ومن الأمثلة على تمادى شياطين الجنّ فى الإيحاء لإخوانهم شياطين الإنس بالغرور والشّرور ، وتمادى شياطين الإنس فى الاستجابة والخضوع إصرار كفّار مكّة على طلب آيةٍ مادّيّةٍ أخرى أو آياتٍ أخر غير القرآن الكريم البصائر والهدى والرّحمة . وإلى هذه المعانى أشارت .

الآيــة رقــم (٢٠٣)

قال تعالى : ﴿ وإذا لم تأتهم بآيةٍ قالوا لولا اجتبيتها . قل إنّما أتّبع ما يُوحَى إليّ من ربّى . هذا بصائر من ربّكم وهدًى ورحمةٌ لقومٍ يؤمنون ﴾ .

إنّ أوّل ما يصادفنا فى هذا القول : ﴿ وإذا لم تأتهم بآية ﴾ جملة : ﴿ لم تأتهم ﴾ والمعروف أنّ جملة : ﴿ أتى ﴾ لا تستعمل فى القرآن الكريم إلاّ دليلاً على البعد . وإنّ فى مجيء هذه الجملة هنا تنبيهًا إلى استحالة إتيان المصطفى ﷺ من عنده كفّار مكّة بأيّ آيةٍ مادّيّةٍ أو آياتٍ مادّيّةٍ اقترحوا لأسباب . ومن هذه الأسباب ما نصّت عليه الآية الكريمة ، ومن هذه الأسباب ما لم تنصّ عليه الآية الكريمة .

إنّ المصطفى ﷺ حينما لم يأت كفّار مكّة بأيّ آيةٍ من الآيات المادّيّة الّتى اقترحوا كي يؤمنوا بزعمهم قالوا للنّبيّ ﷺ لولا اجتبيت تلك الآية المادّيّة أو الآيات، وهلاّ اخترتها واصطفيتها(١) وأنشأتها من قِبَل نفسك(٢) وجَمَعْتَها تعريضًا منهم بأنّك تخترع هذه الآيات وليست من الله(٣) والاجتباء الجمع على طريق الاصطفاء . قال عزّ وجلّ ﴿ فاجتباه ربّه ﴾(٤) وليس بخافٍ تعريض المشركين بأنّ القرآن الكريم ذاته هو مّما اجتباه محمّد ﷺ وأنشأه من قِبَل نفسه ﴿ كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا ﴾(٥) .

(١) تفسير الطّبريّ ٩/١٠٩ . (٢) الجلالين وتفسير ابن كثير ٢/٢٧٩ .
(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « جبى » ٨٧ .
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « جبى » ٨٧ .
(٥) سورة الكهف ٥ .

ويؤمر عليه الصّلاة والسّلام أن يقول لأولئك المتّعنّتين المفترين الكذب ويبيّن لهم بعض الأسباب الّتى تمنعه عليه الصّلاة والسّلام من تحقيق طلبهم . ومن هذه الأسباب ما نصّ عليه القول : ﴿ قل إنّما أتّبع ما يوحَى إليّ من ربّى ﴾ والمعنى قل لهم يا محمّد إنّما أتّبع فيما آتى به من آياتٍ وأُدْلى به من حجج ما يوحَى به إليّ من ربّى جلّ وعلا ، الّذى ربّانى وربّى كلّ خلقه بنعمه وآلائه . إنّ ربّ العزّة الّذى خلقنى وخلقكم هو الّذى أوحى إليّ بالقرآن الكريم المعجزة البيانيّة الخالدة وأنا لا أملك إلاّ الاتّباع لا الابتداع ، وليس عليّ سوى البلاغ لا الحساب . إنّ ربّ العزّة هو الّذى جعل معجزتي الكبرى وآيتي العظمى هذا الكتاب العزيز الّذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد . إنّكم يا كفّار مكّة ـ مثلاً ـ أرباب الفصاحة وأئمّة البيان . ومن غير شكّ أنتم موقنون بأنّ المعجزة البيانيّة هي الّتى تلائمكم فَلِم التّعنّت والاستكبار ! ثمّ إنّ البشريّة قد بلغت مرحلة الرّشد الّتى تلائمها الرّسالة الخاتمة والمعجزة الخالدة والآية البيّنة غير المحدودة الزّمان والمكان . وإنّ هذه النّعوت تتحقّق فى القرآن الكريم وحده المعجزة والمنهج معًا . وحينما تلائمكم يا أهل مكّة ويا أئمّة البيان المعجزة البيّانيّة آية القرآن الكريم البيّنة فذلك معناه أنّ كلّ الآيات الأُخر الّتى طلبتم من المصطفى ﷺ والّتى لم تطلبوا تقلّ عن القرآن الكريم فى مجال الحجّة والإقناع ، الهداية والإرشاد . فلا معنى لطلبكم الآيات الأخر ، وهي فى مجموعها آياتٌ مادّيّة ، محدودة الزّمان والمكان لو تحقّقت ، ولا معنى لإلحاحكم فى الطّلب إلاّ أنّكم متعنّتون لا هون عابثون وغير جادّين . وبما أنّكم هازلون فى طلباتكم المعجزات فإنّ من رحمة الله بكم ألاّ تتحقّق تلك المعجزات الّتى اقترحتم لأنّكم بالقرآن الكريم لا تنقصكم الحجّة ، ولأنّ الآيات الأخر تتخلّف عن القرآن الكريم فى مجال الإقناع . وحينما لا تؤمنون بالقرآن الكريم الآية البيّانيّة وأنتم أمّة البيان فذلك معناه عدم إيمانكم بالآيات المادّيّة الأخر . إنّ علم الله تعالى قد سبق إلى أنّكم لن تؤمنوا لو تحقّقت الآيات الّتى اقترحتم ، وإنّ

ربّكم الله تعالى البرّ الرّحيم لم يشأ أن يستأصل شأفتكم حينما تصرّون على الكفر بعد تحقّق الآيات المقترحة كما استأصل شأفة المكذّبين السّابقين الّذين أصرّوا على كفرهم بعد تحقّق الآيات الّتى اقترحوا ، ولم يشأ عزّ وجلّ أن يجري عليكم سنّته جلّ وعلا فى إهلاك المصرّين على الكفر بعد تحقّق الآيات الّتى طلبوا . إنّ واجبكم أن تشكروا الله تعالى هذه النّعمة العظمى بأن تبادروا إلى الإيمان بالقرآن وتصديق خير الأنام واعتناق دين الإسلام لا أن يسيئوا الفهم وتصرّوا على الضّلال . وإلى سنّة الله تعالى فى المصرّين على التّكذيب وإلى كون القرآن الكريم هو آية دين الإسلام العظمى الملائمة أشارت هذه الآيات الكريمات من سورة الحِجْر[1] قال تعالى : ﴿ وقالوا يا أيّها الّذى نُزّل عليه الذّكر إنّك لمجنون . لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصّادقين . ما ننزّل الملائكة إلاّ بالحقّ وما كانوا إذًا مُنْظَرين . إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون ﴾ . والمعروف أنّ قوم يونس عليه السّلام هم الّذين استُثْنُوا وحدهم من الهلاك على نحو ما يتبيّن فى سورة يونس ، الّتى حملت بسبب ذلك الاستثناء ، اسمه عليه الصّلاة والسّلام ، وذلك فى الآية الكريمة الّتى أشارت إلى هذا الاستثناء . قال تعالى[2] : ﴿ فلولا كانت قريةٌ آمنَتْ فنفعها إيمانُها إلاّ قومَ يونُس لمّا آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي فى الحياة الدّنيا ومتّعناهم إلى حين ﴾ .

وبقيّة الآية الكريمة بمثابة الحجج والأدلّة على كون هذا الكتاب العزيز هو المعجزة الملائمة لأهل مكّة ولجميع العرب ولسائر الأمم . قال تعالى : ﴿ هذا بصائر من ربّكم وهدًى ورحمةٌ لقومٍ يؤمنون ﴾ .

إنّ هذا القرآن الكريم بصائر من ربّكم جلّ وعلا يا أيّها النّاس . وواحدة البصائر بصيرة[3] والبصيرة تقال لقوّة القلب المدركة[4] إنّ هذا القرآن الكريم بصائر نيّرة

---

(١) الآيات ٦ ـ ٩ . (٢) سورة يونس ٩٨ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٩/١١٠ ومفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « بصر » ٤٩ .

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « بصر » ٤٩ .

ينبغى أن يهتدي بها كلّ النّاس وتستنير بها بصائرهم الّتى فى صدورهم . والمعروف أنّ النّاس فريقان من بصائر القرآن الكريم النّيّرة الموحى بها من خالق النّاس جميعًا ومربّيهم بنعمه وآلائه . أمّا الفريق الأوّل فهو الّذى حقّ عليه الضّلالة فلم يستفد من ذلك الخير ولم يستضىء بذلك النّور . وقد ضربت الآية الكريمة عن هذا الفريق الذّكر صفحًا بعد ذلك وسكتت عنه وتحوّلت إلى الحديث عن الفريق الآخر الّذى هداه الله تعالى . والمعروف أنّ هذين الفريقين أشارت إليهما السّورة الكريمة فى الآية الكريمة الثّلاثين . قال تعالى : ﴿ فريقًا هدى وفريقًا حقّ عليهم الضّلالة . إنّهم اتّخذوا الشّياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنّهم مهتدون ﴾ .

وهذا هو نصيب الفريق الآخر المهتدى من القرآن الكريم : ﴿ وهدًى ورحمةٌ لقومٍ يؤمنون ﴾ إنّ القرآن الكريم هدًى للمؤمنين من الضّلالة ورحمةٌ لهم من ربّ العالمين لأنّه سبب الحياة الطّيّبة الّتى ينعمون بها بفضل الله تعالى فى الدّنيا والآخرة .

وهذا القرآن الكريم البصائر من ربّ العالمين والهدى والرّحمة كيف تتحقّق ثماره الشّهيّة ؟ الجواب فى .

الآيـــة رقـــم (٢٠٤)

قال تعالى : ﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلّكم ترحمون ﴾ .

من البيّن أنّ الآية الكريمة لا يجيء فيها القول : اقرأوا القرآن ، إنّما الّذى يجيء فيها : ﴿ وإذا قرئ القرآن ﴾ وفى ذلك تنبيهٌ إلى وجوب قراءة الأمّة جميعها القرآن الكريم من ناحية ، وإلى امتثال الأمّة المسلمة لهذا التّوجيه السّماويّ من ناحيةٍ أخرى. وما أكثر الآيات الكريمات الّتى حثّت على قراءة القرآن الكريم وترتيله ترتيلاً .

ولمّا كانت قراءة القرآن الكريم تنظر إلى هذا الكتاب العزيز من زاوية كونه مقروءًا سرًّا أو جهرًا ، ولمّا كانت القراءة جهرًا يسمعها الحاضرون فما المطلوب من

الحاضرين أن يتّصفوا به حينما يقرأ عليهم القرآن الكريم . المطلوب منهم أن يستمعوا للقرآن الكريم وأن ينصتوا له . قال تعالى : ﴿ فاستمعوا له وأنصتوا ﴾ ويلاحظ أنّ الآية الكريمة لا يجيء فيها القول : فاسمعوا له ، لأنّ هذا القول قد يعنى مجرّد السّماع وليس السّماع الواعي . وإنّه بالنظر إلى استعمالات القرآن الكريم لجملة استمع يتبيّن أنّها تجيء حينما يراد التّنبيه إلى أنّ الموقف استدعى تعمّد الاستماع للقرآن الكريم والإصغاء إليه ، وإلى أنّ المستمع تهيّأ للاستماع وتكلّف الإصغاء .

ولا تكتفي الآية الكريمة بأمر حاضر تلاوة القرآن الكريم بالاستماع التّامّ والإصغاء الكامل إنّما تتجاوز ذلك إلى أمر المستمع للقرآن الكريم المصغي إليه أن ينصت له وأن يتفكّر فيه ، وأن يتدبّره ويتأمّله .

ومن البيّن أنّ قارئ القرآن الكريم أوّل المستمعين المتدبّرين لما يرتّل من آي الذّكر الحكيم .

أمّا ثمرة قراءة القرآن الكريم ، والاستماع له والإصغاء ، والإنصات له والتّدبّر فإنّها رحمة الله تعالى الّتي لعلّها تسع قارئ القرآن الكريم وتشمل المستمعين والمنصتين له . ومن البيّن أنّ رحمة الله تعالى تشمل بإذن الله تعالى أولئك القارئين للقرآن الكريم المستمعين المنصتين حينما يعملون بتعاليم هذا الكتاب العزيز الّذي تبيّن سنّة المصطفى ﷺ معانيه ، وتفصّل مجمله . وهكذا يتّسم أهل القرآن الكريم بصفات أربع مهمة . قراءة القرآن الكريم . الاستماع له إذا قرئ . تدبّره . العمل به .

وإذا كان حظّ الآية الكريمة كبيرًا من عبادةٍ جهريّة تتمثّل في الاستماع والإنصات للقرآن الكريم . فإنّ حظّ الآية الكريمة التّالية كبيرٌ من عبادةٍ أخرى أقرب إلى السّرّ منها إلى الجهر فإلى .

الآيـــة رقـــم (٢٠٥)

قال تعالى : ﴿ واذكر ربّك فى نفسك تضرّعًا وخيفةً ودون الجهر من القول بالغدوّ والآصال ولا تكن من الغافلين ﴾ .

تأمر الآية الكريمة المسلم لله ربّ العالمين أن يذكر ربّه جلّ وعلا فى نفسه وفى أعماقه ، تذلّلاً لله تعالى وتضرّعًا ، تواضعًا لله تعالى وتخشّعًا ، خوفًا من عذابه جلّ وعلا وطمعًا فى ثوابه . ومن البيّن أنّ الذّكر فى النّفس معناه ذكر الله تعالى سرًّا . ويأتى الأمر بعد ذلك بذكر الله تعالى فوق السّرّ ودون الجهر . وهذا المعنى يبيّنه الحديث فى الصّحيحين عن أبى موسى الأشعريّ رضي الله عنه قال : رفع النّاس أصواتهم بالدّعاء فى بعض الأسفار فقال لهم النّبيّ ﷺ : يا ايّها النّاس ارْبَعوا على أنفسكم فإنّكم لا تدعون أصمّ ولا غائبا . إنّ الّذى تدعونه سميعٌ قريب . أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته[1] .

وينبغى أن يكون للفظ الرّبّ من القول : ﴿ واذكر ربّك ﴾ كبير دورٍ فى إشاعة جوّ الرّضا والبهجة لأنّ هذا اللّفظ يستعمل فى القرآن الكريم فى مواطن الخصوص وفى مواقف التّنبيه على وجوب القيام بالشّكر للمنعم جلّ وعلا مربّى عباده بنعمه وآلائه .

وذكر الله تعالى الّذى أُمر المسلم أن يقوم به سرًّا وفوق السّرّ ودون الجهر على المسلم أن يقوم به بالغدوّ والآصال ، بالبكر والعشيّات[2] ولمّا كانت الأعمال تتمّ فى العادة فى هذين الوقتين وذلك على غرار السَّرْح بالأنعام صباحًا والرّواح بها

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٨١ واربَعْ على نَفْسِك : توقّف وانتظر . انظر القاموس .

(٢) تفسير الطّبريّ ٩/١١٣ .

مساءً[١] فكأنّ القول : ﴿ بالغدوّ والآصال ﴾ يشمل كلّ الأوقات نهارًا . وكأنّ القول : ﴿ ولا تكن من الغافلين ﴾ يشمل كلّ الأوقات ليلاً ، لأنّ الغفلة بسبب النّوم غالبًا إنّما تتمّ ليلاً لأنّ الله سبحانه وتعالى جعل لنا اللّيل لباسًا وذلك بالنّوم فيه.

وبذلك تكون الآية الكريمة آمرةً للمسلم ربّ العالمين بأن يذكر الله تعالى فى كلّ الأوقات . والمعروف أنّ الذّكر هو الشّعيرة الدّينيّة الوحيدة الّتى لم يضع الشّارع الحكيم حدًّا لنهايتها وذلك لسهولة الذّكر فى كلّ الأوقات والأحوال . وممّا جاء فى هذا المعنى قول الحقّ جلّ وعلا[٢] : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا الله ذكرًا كثيرًا . وسبّحوه بكرةً وأصيلاً ﴾ .

والحقيقة أنّ فى النّفس ميلاً إلى عقد نوعٍ من علاقةٍ بين الآيات الكريمات الثّلاث الأخيرات من السّورة الكريمة وبين المعانى الثّلاثة الّتى تضمّنتها هذه الآية الكريمة فى القِسْم . قال تعالى : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ وكأنّا نتبيّن أنّ الأمر الأوّل : ﴿ خذ العفو ﴾ الّذى فيه الأمر بالأخذ يتناغم معه الأمر بقراءة القرآن الكريم والاستماع له والإنصات طمعًا فى رحمة الله تعالى الواسعة . قال تعالى : ﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلّكم ترحمون ﴾ وكأنّنا نتبيّن أنّ الأمر الثّانى : ﴿ وأمر بالعرف ﴾ الّذى فيه الأمر بالإعطاء يتناغم معه الأمر بذكر الله تعالى سرًّا وعلانيّةً وفى كلّ الأوقات والأحوال . قال تعالى : ﴿ واذكر ربّك فى نفسك تضرّعًا وخيفةً ودون الجهر من القول بالغدوّ والآصال ولا تكن من الغافلين ﴾ ويبقى وراء ذلك الأمر الثّالث : ﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾ فهل فى الإمكان أن نتبيّن نوعًا من علاقةٍ بين هذا الأمر الثّالث والأخير وبين آخر آيات السّورة الكريمة . ربما تبيّنّا ذلك فلنتحوّل إلى .

---

(١) انظر هنا مثلاً مفردات الرّاغب الأصفهاني : « سرح » ٢٢٩ و« روح » ٢٠٦ .

(٢) سورة الأحزاب ٤١ و٤٢ .

الآيـــة رقـــم (٢٠٦)

قال تعالى : ﴿ إنّ الّذيـن عنـد ربّـك لا يستكبرون عـن عبادتـه ويسبّحونه ولـه يسجدون ﴾ .

وإنّ أوّل ما نودّ أن نتبيّن هو العلاقة بين الأمر الثّالث فى القول فى الآيـة الكريمة التّاسعة والتّسعين بعد المائة : ﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾ وبين الآية الكريمة الّتى نحن بصددها . وكي نتبيّن هذه العلاقة نودّ أن نطـرح هـذا السّؤال : مـا أقبـح مـا يـأتى الجاهلون بسبب الجهل ضدّ العلم وبسـبب الجهـل ضـدّ الحلـم مـن أفعـالٍ وأقـوال ؟ الاستكبار عن عبادة الله تعالى وقول كلمة الكفر بعدم تنزيه الله تعالى عمّـا لا يليـق به جلّ وعلا وصرف العبادة عن الله تعالى المستحقّ لها وحده لا شريك له . فلنتأمّل الآية الكريمة كي نتبيّن أنّها تدور حول هذه المعانى فتحـثّ المسـلمين لله تعـالى ربّ على محاكاة الملائكة الّذين هم عند ربّك جلّ وعلا ايّها المسـلم وأيّهـا الإنسـان . إنّ الملائكة المفردى الإرادة الّذين عند ربّك جلّ وعلا والّذين لا يعصـون الله تعـالى مـا أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، لا يستكبرون عن عبادته جلّ وعلا ، بل يعبدونـه جـلّ وعلا وحده لا شريك له ويخضعون له ويتذلّلون . إنّ عليكـم أيّهـا النّـاس أن تحـذوا حذوا الملائكة الّذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مـا يؤمـرون . والمعـروف أنّ الإنسان ثنائيّ الإرادة بمعنى أنّـه يصـحّ أن يصـدر منـه الخـير والشّـرّ ، والمعـروف أنّ المسلم لله تعالى ربّ العالمين حينما يعبد الله تعالى حقّ العبـادة يظـلّ فـى رقـيّ دائـم وسموّ مستمرّ حتّى يكون فى رأي فريقٍ من العلماء فى درجة الملائكـة وربّمـا تجـاوز تلك الدّرجة لأنّ الملائكـة مفـردو الإرادة ولا يصـدر منهـم إلاّ الخـير ولأنّ الإنسـان ثنائيّ الإرادة يصحّ أن يصدر منه كلٌّ من الخير والشّـرّ . ولهـذا كـانت منزلـة المسـلم المخلص فى العبادة رفيعةً حقًّا . وفى مقابل إخلاص المؤمـن فـى العبـادة ثمّـة المشـرك الجاهل المصرّ على كفره وعناده واستكباره .

وإنّ الملائكة يسبّحونه عزّ وجلّ وينزّهونه تعالى عن كلّ ما يليق به جلّ وعلا وهم كما وصفهم القرآن الكريم[1] : ﴿ يسبّحون اللّيل والنّهار لا يَفْتُرون ﴾ فعليكم أيّها المسلمون لله ربّ العالمين أن تسبحوا الله تعالى بكرةً وأصيلاً وأن تقولوا : « سبحان الله » أطراف اللّيل وآناء النّهار . والمعروف أنّ الجاهلين لا ينزّهون الله تعالى عمّا لا يليق به جلّ وعلا .

وإنّ الملائكة يسجدون لله تعالى ربّ العالمين . فعليكم أيّها المسلمون أن تكثروا من السّجود لله تعالى فى الصّلوات وفى غير الصّلوات . والمعروف أنّ معنى السّجود وضع الوجه على الأرض تضرّعًا وتذلّلاً لله ربّ العالمين ، وتخشّعًا وخوفًا من جبّار السّماوات والأرض . والمعروف أنّ الوجه أشرف أجزاء الجسد . وحينما يكون السّجود على أشرف أجزاء الجسد دليلاً على الخضوع والذّلّ لله تعالى ربّ العالمين فذلك معناه أنّ الخضوع والذّلّ من صميم نعوت سائر أجزاء الجسد . والمعروف أنّ العبد أقرب ما يكون لله تعالى وهو ساجد . فعليكم أيّها المسلمون أن تكثروا من السّجود فى صلاة الفرض والنّفل وفى غير الصّلاة . ومن البيّن أنّ السّجود ، الّذى يدلّ على قمّة الذّلّ والخضوع يقف على طرف النّقيض من الاستكبار عن عبادة الله تعالى والاستنكاف عن السّجود لله ربّ العالمين . ولمّا كان الاستكبار عن العبادة والسّجود من صفات الجاهل فذلك معناه أنّ المسلم بفضل الله تعالى حليمٌ وعليم .

وهكذا تتحدّث آخر آيات السّورة الكريمة عن الهدف الّذى خلق الله تعالى الخلق من أجله وهو إفراد الله تعالى بالعبادة وتنزيهه جلّ وعلا عمّا ألحقه به الظّالمون تعالى علوًّا كبيراً ، والسّجود له عزّ وجلّ فى الصّلاة وغير الصّلاة . وإنّ الصّلاة رمزٌ لسائر الأركان والعبادات .

---

(١) سورة الأنبياء ٢٠ .

إنّ إفراد الله تعالى بالعبادة وتوحيده جلّ وعلا أمرٌ متعلّق بالقلب أو الجَنان . وإنّ تسبيح الله تعالى أمرٌ متعلّق باللّسان . وإنّ إقام الصّلاة وعمل سائر الأركان أمرٌ متعلّق بالجوارح أو الأركان . وحينما يكون الإيمان اعتقادًا بالجَنان ، وقولاً باللّسان، وعملاً بالأركان فذلك معناه أنّ آخر آيات السّورة الكريمة تحثّ على الاستمساك بالعروة الوثقى شهادة ألاّ إلـه إلاّ الله وأنّ محمّدًا رسول الله وتطبيق سائر الأركان.

ولّما كانت السّورة الكريمة تتحدّث في آخرها عن القرآن الكريم وكانت السّورة الكريمة تبدأ بالحروف المقطّعة : ﴿ المص ﴾ وتتحدّث بعد ذلك مباشرة عن القرآن الكريم فكأنّ في حديث السّورة الكريمة عن القرآن الكريم في آخرها نوعًا من ردّ العجز على الصّدر كما يقول البلاغيّون . وذلك دليلٌ على التئام نسق الحديث والتحام أجزاء الكلام .

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين . والحمد لله ربّ العالمين .

كتبـــه

الفقير إلى عفو ربّه

د . حسن محمّد باجودة

أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة

وعميد كلية اللّغة اللّغة العربيّة

بجامعة أمّ القرى بمكّة المكرّمة

مكّـــة المكرّمـــة

صبيحة يوم الجمعة الخامس عشر من شهر رمضان المبارك عام ١٤١٤ هـ

الخاتمة

بفضلٍ من الله تعالى ونعمة درسنا فى الصّفحات السّابقة سورة الأعراف المكّيّة دراسةً متأمّلة . وقد أمكن تقسيم السّورة الكريمة إلى ستّةٍ وعشرين قسمًا .

تحت عنوان : « الرّسول ينذر بالقرآن الكريم الكافرين ويبشّر المؤمنين . وللكافرين عذابٌ أليمٌ وللمؤمنين ثوابٌ عظيمٌ فى الأولى والآخرة » درسنا الآيات (١ - ١٠) تبدأ السّورة الكريمة بالحروف المقطّعة : ﴿ المص ﴾ وتنتصر للقرآن الكريم على الفور فى آيتين كريمتين . فالقرآن الكريم كتابٌ أنزله الله تعالى إلى المصطفى ﷺ لينذر به الكافرين ويبشّر به المؤمنين فلا يكن فى صدر المصطفى ﷺ حرجٌ منه بسبب ما سوف يصادف من صعاب ، وعلى النّاس جميعًا أن يتّبعوا هذا الكتاب العزيز وألاّ يتّبعوا أولياء من دونه جلّ وعلا وأن يتذكّروا ويتّعظوا . لقد حاولنا فى أثناء الدّراسة توضيح القول بأنّ القرآن الكريم يرضى كلّ عقلٍ بفصوص حكمه ويشبع كلّ نفسٍ بكثرة مائه وجمال جرسه . وبقصد حمل كفّار مكّة على التّحوّل إلى الصّراط المستقيم يذكر السّياق هلاك الله تعالى أهل القرى المكذّبين من قبل وأخذ الله تعالى لهم فى وقت الغفلة ليلاً أو نهارًا . وبعد الحديث عن هلاك القوم يكون الحديث عن الحساب يوم القيامة ، وإحاطة الله تعالى علمًا بكلّ شىء ، وعن الوزن الحقّ ، والحُكْم العدل . فمن ثقلت فى الميزان حسناته أفلح ، ومن خفّت خسر نفسه وغيره . وبعد الجولة الواسعة والسّير مع النّاس حتّى النّعيم المقيم فى الجنّة أو العذاب الأليم فى النّار يعود السّياق بالنّاس إلى دنيا الواقع فيبيّن لهم فى الآية الكريمة العاشرة والأخيرة فضل الله تعالى عليهم بتمكينهم فى الأرض فعلى النّاس أن يبادلوا الإحسان بالإحسان وذلك بالشّكر الكثير لله تعالى .

وتحت عنوان : « عداوة إبليس لآدم عليه السّلام وذرّيّته أزليّة » درسنا الآيات (١١ - ٢٥) ولمّا كانت آيات القيم السّابق قد حملتنا إلى الآخرة ثمّ عادت بنا إلى الأولى فإنّ آيات هذا القسم التّالى تواصل العودة إلى الوراء فتتحدّث عن خلق الله تعالى آدم عليه السّلام وجعله فى أجمل صورة وأحسن تقويم ، والمعروف أنّ الذّرّيّة